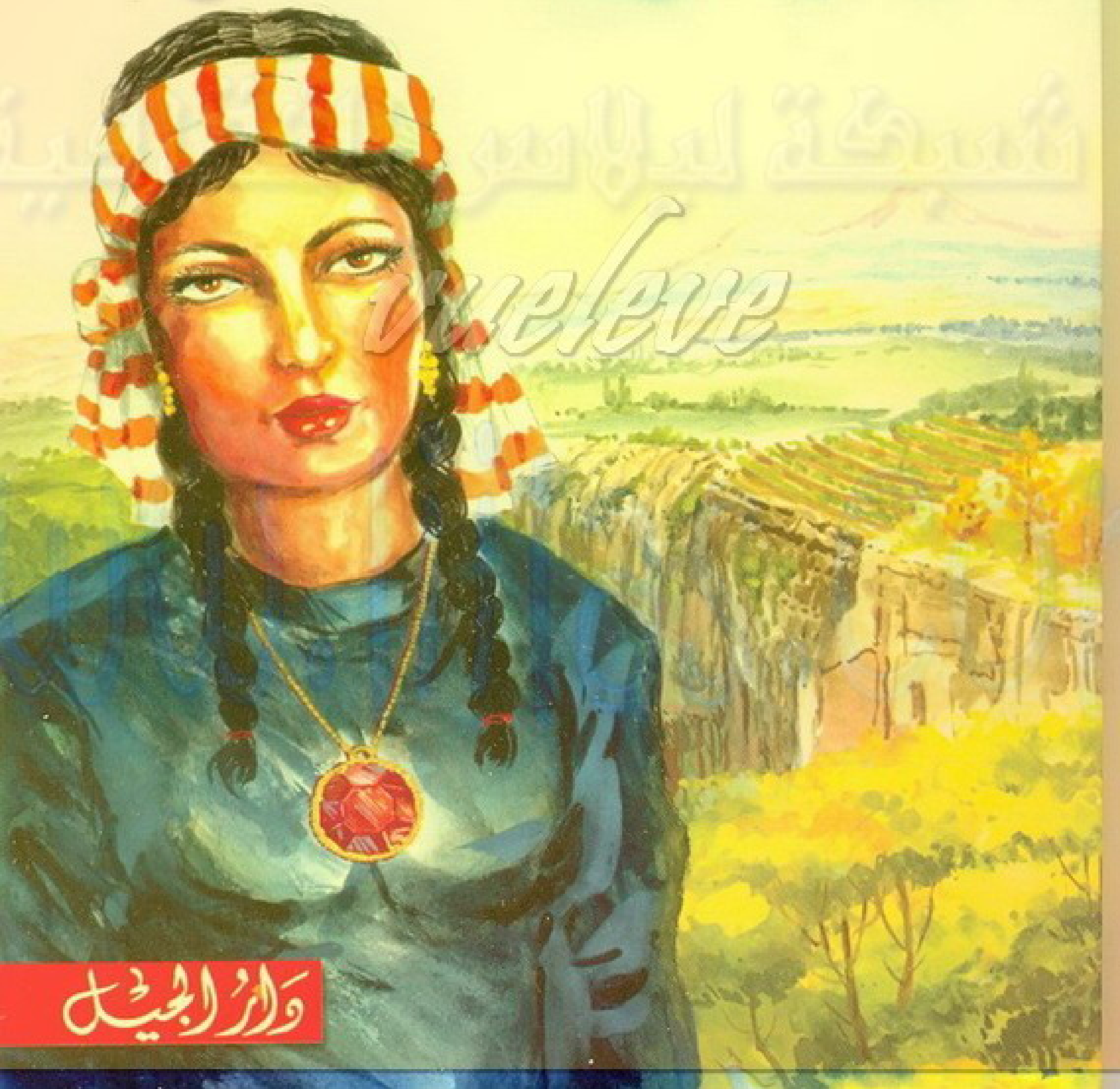
بيار روفايل

الجوهرة الحمراء



دار الجيل

الجوهرة الحمراء

تضمّ صفحات هذا الكتاب أربع قصص :

الجوهرة الحمراء : قصة عاطفية تاريخية اجتماعية جرت حوادثها في عهد الأمير فخر الدين المعني. وتنطوي على سرّ غامض امتدّ إلى سنين بعيدة، وما بُذل من جهد لكشف هذا السر...

الشبح الرهيب : قصة جريمة رهيبة ارتكبها رجل شرير بكل دقة واستطاع أن يخفي جريمته. غير أنه جهل أن الله عزّ وجلّ يمهل، لا يهمل، وأن ليس للمجرم الشرير الذي ينجو من عدالة الأرض، أن ينجو يوماً من عدالة السماء. كيف حصل ذلك؟

معاً إلى الأبد : إنها قصة الحب والوفاء والتضحية... قصة شاب وفتاة ربط الحب الوثيق بين قلبيهما، فتعاهدا على العيش معاً إلى الأبد واطمأنت الحبيبات إلى مصير قلبيهما الهائمين وراحا يتأهبان لتنفيذ العهد الوثيق، ماذا حدث؟ إنها درب طويلة محفوفة بالآلام.

الانتظار الطويل : قصة الهوى العذري النبيل الممزوج بالدموع والعذاب، والمفعم بكل قيم الوفاء التي تصل بصاحبها إلى حدّ التضحية اللامحدودة.

ISBN 9953-78-038-2
9 789953 780382

مقدمة

هذا الكتاب يضمّ بين صفحاته أربع قصص:

• **الجوهرة الحمراء:** قصة عاطفية تاريخية اجتماعية. جرت حوادثها في عهد الأمير فخر الدين المعني. وتنطوي هذه القصة على سرّ غامض امتدّ إلى سنين بعيدة من دون أن يستطيع أحد كشف هذا السرّ الدفين... وأخيراً كشف السر. وتبين أنه كامن في جوهرة حمراء تزين عقداً يطوّق جيد حسناء رائعة الجمال.

• **الانتظار الطويل:** قصة الهوى العذري النبيل والتضحية السامية الشمّاء.

• **معاً إلى الأبد:** إنها قصة الحياة المألوفة، قصة الحب والوفاء، والتضحية والظلم والعذاب والدموع... قصة شاب وفتاة ربط الحب الوثيق بين قلبيهما، فتعاهدا على العيش معاً إلى الأبد. واطمأن الحبيبان إلى مصير قلبيهما الهائمين. وراحا يتأهبان لتنفيذ العهد الوثيق، والعيش معاً إلى الأبد... إلّا أن القدر، كالعادة المألوفة، انبرى ليقف بينهما محاولاً القضاء على السعادة المنتظرة والحؤول بينهما وبين العيش «معاً إلى الأبد».

• **الشبح الرهيب:** قصّة جريمة رهيبة ارتكبها رجل شرير بكل

دقّة وحذق وذكاء. واستطاع أن يخفي جريمته، وقد خيِّل إليه أن ليس ثمة من يستطيع اكتشاف تلك الجريمة النكراء، غير أنه جهل أن الله، عزّ وجلّ، يمهل ولا يهمل، وأن ليس للمجرم الشرير الذي ينجو من عدالة الأرض، أن ينجو يوماً من عدالة السماء.. وكان لظهور شبح رهيب في قصر مهجور منيف، سبب في كشف جريمة ذلك المجرم الشرير.

بيار روفايل

الجوهرة الحمراء

الفصل الأول

1

الليل صافي الأديم. والنجوم ترتع على مسرح القبة الزرقاء بتيه وغنج ودلال.

ونسيمات الليل الهائمة الولهى ترسل نفحاتها فتعطر جبال لبنان وأوديته وتِلاله ورُباه.

والأنهر المنسابة في سفوح الجبال، تسكر الأودية بأناشيدها وتشنف آذان الليل البعيد بألحانها الشجية.

وغرقت جبال لبنان وأوديته في سكون الليل البهيم.

وانتشت برائحة الصنوبر والبطم والبلان.

وسكرت بالنسيم العليل الغامر الأغصان اللافح الصخور، المتسلق قمم الجبال وذرى التلال على حنين ولوعة واشتياق.

والكل نيام.

ما هناك سوى الطبيعة يقظى لا تنام، فكأنها والنوم على خلاف دائم. كل ما فيها يجنح إلى اليقظة والعمل والجهاد.

وهناك في بعقلين، عاصمة الأمير فخر الدين الثاني عينان لا تنامان ولا تعرفان طعماً للكرى. إنهما تشاركان الطبيعة في يقظتها الدائمة.

والعينان هما عينا الأمير ناصر المعني، نسيب الأمير فخر الدين حاكم لبنان.

والعام عام 1598.

والأمير فخر الدين ما زال في بدء حكمه.

فهو ما زال يعمل على استتباب الأمن في لبنان وبسط سلطانه على هذا الجبل المطمئن الرابض بأمان واطمئنان وسلام على شاطئ البحر المتوسط.

يغسل رجليه بأمواج البحر المتواثبة نحوه على شوق واندفاع.

ويتجلبب بالضباب، ويتوج رأسه بالثلوج الناصعة البياض.

انصرف الأمير المعني إلى الاهتمام بشؤون الإمارة.

فهو يريد لبنان مستقلاً.

لا تربطه بالدولة العثمانية، المتربعة آنذاك على عرش من السطوة والمجد والسلطان متين الأركان، أية رابطة.

ولا تجره عجلة الاستعمار والاستعباد والذل والخنوع.

ووجّه الأمير أنظاره شطر سوريا فهو يريد الإمارة بعيدة الحدود، من حلب حتى القدس.

مطامح الأمير فخر الدين وآماله وأحلامه العذاب لا تقف عند حد.

إنه يريد أن يجعل من هذا الجبل الشامخ الجبار منارة تسطع أنوارها في الشرق وفي الغرب.

ووجه الأمير أنظاره شطر الغرب فعقد المعاهدات التجارية والثقافية والاجتماعية مع الدول الغربية.

إنه يريد بذلك الانتقام من الدولة العثمانية التي فتكَتْ بأبيه.

لقد أولى شؤون الإمارة الداخلية كل عنايته.

فنظم جباية الضرائب، واستطاع أن يجمع 900 ألف ذهبية.

كان يدفع منها ضريبة للدولة العثمانية 340 ألفاً، وينفق ما بقي على تجهيز جيشه البالغ 40 ألفاً.

وتحسين الإنتاج الزراعي والصناعي.

وتعميم الثقافة، ونشر العلوم في لبنان.

وأدرك الأمير فخر الدين أي خطر يكمن في تقريب الأهل والأقارب من الحاكمين.

لقد أدرك أن أهله سيعمدون إلى استغلال نفوذه لتنفيذ مآربهم الشخصية.

فأقصى الأهل والأقارب عن بلاطه.

وأبعدهم عن بعقلين لئلا يفسدوا عليه الحكم ويستغلوا سلطانه لجمع الأموال بطرق غير مشروعة وأساليب تسيء إلى سمعته العاطرة الفواحة العبير.

ولقي الكثيرون من أهله وأقاربه الشح والهوان.

وعرف الكثيرون منهم مرارة الفقر والحرمان.

إلا أنهم ظلوا يتربعون على عرش من الكرامة المنيف والشرف الأثيل.

فما كان الفقر ليذلّ نفوسهم الأبية.

وما كان الحرمان ليحرمهم الشهامة والمجد والأنفة والإباء.

والأمير ناصر المعني الساهر أبداً، المحروم لذة النوم، كان من أقارب الأمير الحاكم الذين جنت عليهم الإمارة.

فقد فرض ابن عمه الأمير عليه ضريبة باهظة.

تماماً كما فرض على غيره من أبناء البلاد.

وحاول الأمير ناصر إقناع ابن عمه بتخفيض الضريبة.

إلا أن الأمير فخر الدين أصر على رأيه: «لا يا ناصر.

الضريبة هي هي على جميع أبناء البلاد. ليس لدى الأمير فخر الدين ابن ست ولا ابن جارية. كلكم عندي سواء. الأقربون يدفعون الضريبة قبل الأبعدين. وما يدفعه ابن المعني يدفعه ابن الشهابي وابن الخازني وابن نادر وابن حرفوش.

وتذمّر ناصر، وتبرم بهذا الحاكم الجائر المستبد.

وقال: إلا أنني لا أستطيع أن أدفع ما تفرضه علي يا ابن عمي.

قال الأمير: إذا لم تدفع الضريبة المفروضة عليك فسيكون نصيبك السجن، مثلك مثل أي فرد من أفراد الشعب لا يدفع الضريبة.

قال ناصر: ولكن أنا ابن عم الأمير فخر الدين الحاكم.

قال فخر الدين: ابن عم الأمير يجب أن ينفذ أوامر الأمير قبل أي إنسان.

فعاد ناصر إلى التذمر: أنت تريد القضاء على المعنيين في لبنان. ما عرف لبنان حاكماً مستبداً ظالماً مثل الأمير فخر الدين يا ابن عمي. إذا أردت السير في هذا الطريق فلن تصل إلى الهدف. لا، مصيرك سيكون كمصير والدك المرحوم.

فابتسم الأمير فخر الدين: أنا ما أردت الظلم يا ناصر، ولا رغبت في الاستبداد إلا أنني أريد الانصاف دستوراً لحكمي، والعدل أساساً لأوامري. هذه مشيئتي. أبناء المعنيين ليسوا بأفضل من سائر اللبنانيين. كما يدفع الجميع ستدفعون أنتم.

وصرفه عنه بسلام.

وعاد ناصر إلى داره، والهم يحتلّ صدره ويغمر روحه.

ويله ما عسى أن يفعل.

لقد كان يعلق على تربع ابن عمه في عرش الإمارة الآمال العذاب.

كان يأمل أن يستعيد مكانته المالية التي كاد يفقدها بتبذيره وإسرافه وسخاء يمناه.

وخيّل لناصر أن الثروة المدرار ستتدفق بين يديه وقد جلس ابن عمه فخر الدين في كرسي الحكم.

لقد خيل إليه أن فخر الدين سيغرف من صندوق الدولة وينثر على أبناء عمه وأقاربه وأهله.

وأنه سيُعفيهم من الضرائب المرهقة.

ويطلق أيديهم في شؤون البلاد.

فيشبعون أهواءهم، ويروون مطامعهم، ويثرون، وينعمون بملذات الحياة وأطايبها.

إلا أن جميع هذه الأحلام تبخرت في الهواء، وذابت كما يذوب الملح في الماء.

وتلفت ناصر حوله فلم يجد ما يسدد به ديونه...

بساتين الزيتون مرهونة للشيخ حمد علم الدين.

وكروم العنب بحاجة إلى خمسين ذهبية لتعود إليه، فقد استدان باسمها 50 ذهبية من الأمير فايز أبي اللمع.

وحقول القمح ستباع بالمزاد العلني.

وصندوقه فارغ من القرش.

وقصره خال من القمح ومن الزيت ومن السمن ومن اللحوم.

وأسرع ناصر المعني إلى زوجته ناهدة يطلعها على الحقيقة المرة المذاق والدمعة في عينيه.

قال: ناهدة، نحن سائرون إلى الإفلاس. خابت آمالنا بفخر الدين فهو لم يكتف بحرماننا من موارد الدولة بل عزم على استيفاء الضرائب منا كاملة.

فوجمت ناهدة: ماذا تقول يا ناصر؟ ماذا تقول؟ أيكون نصيبنا الإفلاس؟ أيمكن هذا؟

قال: هذه هي الحقيقة يا ناهدة. رأيت أن أبسطها لك لتكوني على علم بكل شيء.

قالت: وماذا عسانا فاعلين؟ وابنتنا هند ماذا نقول لها وهي الطامعة في قصر وجواهر وحلى وماس؟

قال: لا أعلم، لا أعلم.

قالت: فلنبع أراضينا وأرزاقنا ونرحل عن هذه الربوع.

قال: وهل بقي لنا شيء من الأراضي والأرزاق؟ كلها مثقلة بالديون يا ناهدة.

قالت: فلنلجأ إلى أخيك عادل يا ناصر لعله يمدنا بشيء من المال ننقذ به موقفنا ونرد الفضيحة عنا.

قال: أخي يعجز حتى عن القيام بسد نفقته، لن يستطيع إنقاذنا مما نحن فيه. لن يستطيع وهناك ابنه نديم مشرف على الزواج وهو بحاجة إلى المال الوفير.

فصمتت ناهدة.

وصمت الأمير.

وغرقا في صمت عميق سحيق بعيد القرار.

ويلهما ما عساهما يفعلان والإفلاس يطل عليهما بشبحه القاتم المخيف مهدداً بفضيحة ما بعدها من فضيحة.

واستلقى الأمير ناصر المعني في فراشه، وقد أشرف الليل على الانتصاف.

ولكن لا لينام.

بل ليفكر، ويغرق في أوهامه وآلامه وقلقه واضطرابه وشجونه.

2

أُعلن في بعقلين إفلاس الأمير ناصر المعني. وأسرع الدائنون يستوفون أموالهم من ثمن كروم الزيتون وبساتين الأشجار المثمرة وحقول القمح المباعة بأسعار بخسة تكاد لا تساوي نصف أسعارها.

وانزوى الأمير ناصر المعني في قصره الرابض على أكمة على كتف بعقلين المتطلعة أبداً إلى السماء بعين المنى والأحلام.

وأغلق الأمير أبواب القصر عليه وعلى زوجته ناهدة وابنته هند.

وأبى أن يسمح لأحد بمقابلته.

الأمير ناصر المعني غاضب على دهره. ناقم على البشر. إنه غارق في يمّ من الأشجان والأحزان والهموم.

هو لا يملك من حطام هذه الدنيا سوى القصر الذي يعيش فيه وبعض الأثاث القديم العهد.

هذا ما تركه له الدائنون من ثروته الطائلة التي ورثها عن الأجداد الراحلين.

وأقامت زوجته الأميرة ناهدة على حسرة وألم.

وانصرفت إلى ذرف الدموع، تطفئ بها لهيب الأشجان والهموم.

لقد رماهم الدهر بنباله، فأثخنهم بالجراح، وعبث بسعادتهم.

وبعثر آمالهم وأحلامهم العذاب.

وانحدرت دموع الأميرة على خديها غزيرة سخية.

وشاهدتها ابنتها هند في دمعها وهزالها وشحوبها.

فأسرعت إليها تطوقها بذراعيها.

وتشاركها سكب الدموع وإرسال الآهات واللوعات والأنين.

وضمت الأميرة ناهدة ابنتها هند إلى صدرها.

وتمتمت: حرسك لنا الله يا هند، حرسك لنا الله. إن يكن إله السماء ضنَّ علينا بالسعادة المادية فهو وهبنا السعادة كل السعادة في سلامتك وبقائك قربنا تخففين عنا عبء الهموم وأثقال الشجون.

ومسحت هند دموعها.

وتمتمت: لا بأس يا أمي، كل ما يأمر به الله مطاع، هذه هي إرادته السامية الخفية، أنعصي إرادته ونتمرد على مشيئته كالكافرين الملحدين الجاهلين أسرار الحياة وما وراء أسرار الحياة؟ لا. إذا كان الله قد ضنَّ علينا بالمال فهو ما حرمنا العافية وهي، والله، أثمن من المال وأغلى من الذهب.

وأطل الأمير ناصر المعني، وعيناه تغرورقان بالدموع.

وشاهد زوجته وابنته تتهامسان.

فاقترب منهما متمتماً: ماذا؟ ما بكما؟ هل أصابكما مكروه؟ هل نزل بكما أمر جلل؟

فابتسمت هند: لا يا والدي نحن بألف خير تحت جناحيك، حرسك الله وأبقاك لنا سنداً نستند إليه في المسير. لا عدمناك يا والدي الحبيب.

وضمَّ الأمير ناصر ابنته إلى صدره، كأنه يضم الدنيا بأسرها.

هذه الابنة هي كل ما بقي له من السعادة والطمأنينة والهناء.

وفيما الأمير ناصر منصرف إلى التحدث إلى زوجته وابنته طرق الباب.

وارتسمت الدهشة على وجه الأمير ناصر المعني: من تراه الطارق في هذه الساعة المبكرة من الصباح؟

ودعا ابنته هند إلى فتح الباب: قومي يا هند، قومي يا ابنتي افتحي الباب. إذا كان الطارق أحد أنسبائنا الأمراء قولي له إن والدي غير موجود الآن. أنا لا أريد أن أقابل أحداً من الأمراء. لا، لن أقابلهم إلا وقد استعدت مكانتي المالية. الأمير ناصر المعني سيظل الأمير ناصر المعني سواء أكان صندوقه فارغاً أم عامراً بالذهب.

وقامت الأميرة هند تفتح الباب: من؟ من الطارق؟

وأطلَّ وجه شاحب اللون بارز العظام غارق العينين ناتئ الأسنان يتهادى فوق كتفين عامرتين عريضتين.

وتمتم صاحب الوجه الشاحب النحيل: أنا.. أنا سرحال الدوار يا سيدتي.

وسرحال ليس بغريب عن قصر الأمير ناصر المعني.

لقد كان سرحال لأمد قريب خادماً في قصر الأمير.

كان يقوم بتنظيف القصر، وبتقليم أشجار الحديقة المثمرة، وبشراء بعض الأغراض التي يحتاجها القصر ورب القصر وربته.

وتمكّن سرحال الدوار من جمع ثروة متواضعة من الخدمة في قصر الأمير.

واشترى بستان زيتون، ثم اشترى كرماً مترامي الأطراف مغروساً بالدوالي وبأشجار التين.

وأصبح في مدة وجيزة من أصحاب الأملاك.

فترك الخدمة في قصر الأمير ناصر المعني لينصرف إلى الاهتمام بأرزاقه وأراضيه.

وأخذ سرحال يعمل على إدانة أمواله بفوائد باهظة فأثرى.

وعندما عرضت أرزاق سيده الأمير ناصر بالمزاد العلني تقدم سرحال لشراء بعض هذه الأرزاق.

فاشترى الحقل الواسع الشاسع بسعر بخس زهيد.

ورحبت هند بالخادم سرحال: أهلاً بسرحال أهلاً. ما جاء بك إلينا في هذه الساعة المبكرة من الصباح؟

وابتسم سرحال الخادم ابتسامة عريضة، فبرزت أسنانه الناتئة، وتثنت تجاعيد وجهه، ولمعت عيناه الدقيقتان.

وتمتم: لي حديث مع مولاي ناصر. أريد أن أتكلم إليه أيكون سيدي الأمير في القصر؟

قالت هند: أجل يا سرحال. مولاك الأمير هنا. تعال. تعال معي.

وقادته إلى غرفة الاستقبال حيث يجلس والدها ووالدتها: تفضل يا سرحال تفضل.

وتفضل سرحال بالدخول.

وأسرع بالانحناء على يد الأمير ناصر المعني يقبّلها: مولاي الأمير!.. مولاي الأمير! إنني لفي اشتياق إليك.

فهدر الأمير: أهلاً وسهلاً بسرحال. تفضل يا ابني. اجلس.

وجلس سرحال وعيناه لا تكادان ترتفعان إلى الأمير.

وأشعل الأمير المعني لفافة لفها بيديه.

ونفث دخانها في الفضاء.

وتمتم: ماذا يريد منا سرحال؟ هل هناك من خدمة نقضيها لك؟

قال سرحال: أجل يا سيدي الأمير. هناك حاجة أريدكم على قضائها لي.

قال الأمير: إذا قدرنا عليها يا سرحال قضيناها لك. ما هي حاجتك يا ابني؟

قال سرحال: عفوكم يا مولاي. أريد التحدث إليك على انفراد.

وأشار الأمير ناصر إلى الأميرة ناهدة زوجته وإلى ابنته بالخروج فخرجتا.

ونظر الأمير إلى سرحال متمتماً: قل. قل يا سرحال ماذا تريد؟

قال سرحال بخبث ومكر ودهاء: لست أجهل يا مولاي الحال التي وصلتم إليها. وليس ثمة في بعقلين من يجهل هذه الحال.

فأحس الأمير ناصر المعني بالوخزة تدمي كرامته.

فنفث دخان لفافته في الفضاء وصمت.

وأكمل سرحال حديثه قال: وأنا من خيركم أملك بعض ما جدتم به علي. قد أستطيع درء الفاقة عنكم يا مولاي.

فأكبر الأمير ناصر المعني في خادمه الأمين هذه العاطفة النبيلة.

إلا أنه أبى أن يستجدي خادمه.

وتمتم بكرامة وأنفة وشمم: شكراً يا سرحال. نحن من نعمة الباري ما زلنا بألف خير.

وتمتم سرحال: أنا يا مولاي أملك الآن مبلغاً لا يقل عن الخمسمئة ذهبية. إنني أملك الكيس، كيس الخمسمئة. وأملك بساتين

زيتون شاسعة وكروم عنب واسعة وحقولاً مترامية الأطراف. كل هذا من أفضالكم علي. وكل هذا أضعه تحت تصرفكم يا مولاي.

ومضى الأمير في صمته.

وانصرف إلى التفكير. . .

أيجوز أن يستدين من خادمه؟.

أيجوز أن يأخذ المال من سرحال؟

أينحدر إلى هذه الدركات؟

لا، لا، لا لن يستدين من سرحال، لن يستدين.

إنه ليفضل الموت جوعاً مع زوجته وابنته على أن يقال يوماً: الأمير ناصر المعني مدين لسرحال الخادم.

يكفيه ما لقي من الفضائح والذل والهوان.

واستأنف سرحال الكلام قاطعاً على الأمير تفكيره.

قال: أنا لا أعرض عليكم مالي هبة لوجه الله الكريم يا مولاي لا. إنني لفي حاجة إلى خدمة تؤدونها لي لقاء ما ساهبكم من ذهب ومال وأرزاق.

واستأنف الأمير المتربع على قمة العزة والشموخ نفث دخان اللفافة في الفضاء.

وأكمل سرحال: خدمة بخدمة يا مولاي.

وتمتم الأمير بعد صمت طويل: ما هي حاجتك يا ابني؟ قد نقضيها لك بدون أن نأخذ ثمناً لها.

وتلعثم سرحال، وصبغت حمرة الخجل وجهه الأسمر النحيل.

وتمتم: جئتكم يا مولاي طالباً يد كريمتكم الأميرة هند.

ونزل كلام سرحال الخادم على رأس سيده الأمير نزول الصاعقة.

وظهر الغضب الشديد في عينيه.

ووقف مشيراً إلى هذا الخادم الوقح بالخروج من القصر.

وهدر: اخرج من قصري يا سرحال. بنات الأمراء المعنيين ما تزوجوا يوماً من خدمهم.

وخشي سرحال انفجار غضب الأمير.

وهو يعلم ما لهذا الغضب من الدوي الشديد.

فانسلَّ من أمام الأمير وهو مطرق الرأس.

وخرج من القصر والغضب الشديد يهزه هزاً:

يا لهذا الأمير المفلس الفقير الذي يعتصم من الكبرياء الجموح في أعلى مقام.

وجلس الأمير ناصر المعني على طنفسة حريرية يزأر من الغضب.

وهو عاقد الحاجبين جاحظ العينين.

يرسل نفثات لفافته.

وينفث معها حنقه ولوعته وشروده:

يا للأيام الجانية الساخرة العاتية التي أذلت الأمير ناصر المعني.

وسمحت لخادمه سرحال بالتطاول على مقام الإمارة الرفيع.

* * *

الخادم سرحال الدوار على نار وحمم ولهيب. قلبه يعذبه، ويقضُّ مضجعه.

ويعكر عليه صفو الحياة ولذتها وأفراحها.

لله من هذا القلب الموجع المؤلم المثخن بالجراح الذي يدفع دموع سرحال الدوار إلى الانسكاب على خديه الأسمرين الناتئين!

وسرحال يحب ابنة سيده الأميرة هند.

إنه يحبها ويتفانى في حبها.

إنه يود أن يبذل ماله وثروته التي جمعها بعرق الجبين طيلة أربعين عاماً في سبيل الوصول إلى الأميرة هند.

ولكن لا المال ولا الثروة ولا بساتين الزيتون ولا حقول القمح ولا كروم العنب تستطيع أن تقرب الأميرة الصغيرة الحسناء إليه.

وشعر سرحال الدوار بحقارة المال وبتفاهة الذهب.

أية قيمة للمال إذا كنا لا نستطيع أن نشتري به كل شيء؟!

وأي ثمن للذهب إذا كان لا يتمكن من توفير ذرة من هدوء لنا أو حبة من راحة وسلام واطمئنان؟

لعمري، إن التراب الذي تدوسه أقدامنا أثمن من المال في حقارته وأبهى من الذهب في تواضعه.

والإنسان يدرك يقيناً أن المال يشده نحو التراب.

ولكنه لا يزال يعدو وراء المال.

ويعلم أن الذهب يبعده عن السماء، ولا يزال يركض وراء الذهب.

وكلما عدا الإنسان وراء المال هرب المال منه.

وكلما جمع الذهب في صناديقه جمع معه حبات الدموع وحفنات التراب...

للذهب سلاسل تشدنا نحو القبر.

وللمال قيود تكبل أهواءنا وآمالنا وأحلامنا العذاب وتحجب عنا ذلك النور البهي الجاثم هناك فوق السديم ما وراء الأفق البعيد.

وأدرك الخادم سرحال الدوار كل هذا فبكى.

وأيقن أن ثروته كلها لا تستطيع أن تمحو عن جبينه وصمة «الخادم».

فالأمراء سيظلون ينادونه باسم الخادم ولو جمع في صندوقه أموال العالم كلها.

وثار سرحال وعزم على الانتقام.

الانتقام ممن؟

من نفسه ومن ماله ومن الأمراء.

سرحال سينتقم لقلبه الصريع.

سيعمل جاهداً للحصول على الأميرة الحسناء.

إن لم يكن فبواسطة المال بواسطة قوة زنديه وجرأة فؤاده.

وعكف سرحال على رسم الخطط.

وكلها خطط ترمي إلى هدف واحد.

إلى اختطاف الأميرة الصغيرة من قصر والدها.

والزواج منها بالقوة.

وعندما تصبح هند زوجته فليفعل والدها الأمير ناصر المعني ما يريد ويشاء.

وراح سرحال الدوار يرقب الفرص السانحة لاختطاف الأميرة هند.

إلا أن الفرص المعاندة لم تسنح له.

بل ظلت على عناد واندحار.

وغضب سرحال الدوار لمعاندة الأقدار.

وعزم على اقتحام قصر مولاه الأمير ليلاً واختطاف هند.

وفيما هو يعد العدة لاختطاف حبيبته الأميرة فوجئ بنبأ زواج هند.

هكذا، زواج بلا خطبة ولا حفلة رائعة ولا مقدمات.

فوجم سرحال الدوار، ونبأ زواج هند يقع منه في الأذنين.

وتساءل: من تراه يكون عريس الأميرة هند؟

وعلم من هو. إنه الأمير سميح الشهابي. الأميرة للأمير.

وخفض سرحال رأسه وألوى عنقه ودمعت عيناه، وصمت...

مسكين سرحال الدوار. لقد فجع بقلبه.

هند ابنة ناصر المعني قضت عل هذا القلب بالعذاب والشقاء طيلة الحياة.

يا لعذاب سرحال الدوار الموجع المؤلم المخيف!

وأقامت هند المعني في دار عريسها سميح الشهابي في بيت الدين.

إلا أن والدها ووالدتها رغبا إليها الإقامة في قصرهما في بعقلين مع زوجها.

فهما يسيران إلى القبر بخطوات واسعة سريعة.

المصيبة النازلة بهما هدت كيانهما وعصفت بحياتهما وشدتهما إلى الموت.

ونزل الأمير سميح الشهابي عند رأي عمه والد زوجته.

ونزح عن بيت الدين مع هند إلى بعقلين وحلاّ في قصر الأمير ناصر.

وأعاد الصهر العزيز تأثيث القصر مجدداً.

وغمر العريس والد زوجته بالمال الوفير.

فالأمير سميح الشهابي على غنى فضفاض وثروة مدرار وذهب وفير.

وعادت للقصر الحزين، قصر الأمير ناصر المعني، بهجته وروعته وأفراحه وأحلامه وأمانيه.

إلا أن رب القصر الأمير ناصر لم ينعم بما حمل إليه صهره من الراحة والأمان والسلام والمال.

فقد أصيب بنوبة قلبية أودت بحياته.

وبكت هند والدها بدموع غزيرة.

وشيع الأمير سميح الشهابي عمه الأمير ناصر المعني بجنازة اهتزت لها أرجاء بعقلين.

واشترك فيها الحاكم فخر الدين ورجال بلاطه والشرفاء والأعيان والأمراء.

وانصرف إلى التخفيف عن زوجته ألم المصيبة القاصمة الدهياء.

وقبل أن تنسى الأميرة هند موت والدها، قبل أن تجف دمعتها على أبيها، فجعها الدهر بأمها.

فقد توفى الله الأميرة ناهدة بعد موت زوجها بشهر واحد.

فكأن الأمير ناصر أبى إلا أن يرسل في طلب الزوجة الوفية لترتاح من أعباء الحياة.

واستأنفت الأميرة هند زوجة الأمير سميح الشهابي سكب الدموع.

أبوها وأمها رحلا عن هذه الحياة.

وليس لها الآن في هذه الدنيا سوى زوجها الحبيب.

وأقامت مع زوجها في قصر والدها تبكي ذلك الأب وتلك الأم بدموع غزيرة مدرار.

وكأن الله القوي القدير الذي سلب الأميرة هند زوجة الأمير سميح الشهابي أمها وأباها أشفق عليها وأرسل إليها السلوى. فحملت.

وأسرعت الأميرة هند إلى زوجها تزفه الخبر السار: سميح! إنني حامل. لك البشرى يا حبيبي، يا سميح.

فوثب الأمير سميح الشهابي إلى زوجته يضمها إلى صدره.

ويطبع على وجنتيها قبلة الحب والإخلاص والوفاء.

وغمرت الفرحة قلب الأمير الشاب.

وانصرف إلى الاستعداد لاستقبال القادم من وراء الغيب المجهول القرار.

وارتاح الأمير سميح الشهابي للبشرى التي زفّتها إليه زوجته الحبيبة.

فهو يريد أن يكون أبا يسمع في قصره زقزقة الطفل، ويسمع نجواه وينعم بقربه.

حتى إذا توارى يوماً عن هذه الحياة ترك على الأرض اسمه مسكوباً على ابنه العتيد.

وودّ الأمير سميح الشهابي أن يكون المولود ذكراً كي يرث عنه الإمارة.

ويسلمه زمام أعماله الواسعة.

فيشرف بنفسه على زراعة الحقول وتقليم الأشجار وبيع الإنتاج الزراعي وضبط الحسابات.

إلا أن الله خيب آمال الأمير سميح الشهابي.

فقد ولدت زوجته الأميرة طفلة رائعة الجمال.

كل ما فيها يشير إلى أنها سليلة الأمراء.

وكانت الطفلة شديدة الشبه بأمها، فكأنها الأميرة هند.

واستقبل الأمير سميح الشهابي الطفلة بزمّ الشفتين وتقطيب الحاجبين.

لقد أراد أن يكون له صبيّ فكانت ابنة.

لا بأس، هذه هي مشيئة الله المباركة السمحاء.

وأقبل الأمير سميح الشهابي يهنئ زوجته الأميرة بالسلامة.

واحتضن الطفلة الصغيرة يقبلها.

وشعر بعاطفة الأبوة تغمر حنايا روحه.

وأحس بالعطف على الطفلة الصغيرة الجميلة الباكية.

ولو خيّر آنذاك أن يستبدل هذه الطفلة الصغيرة بصبي لرفض.

فقد أحسّ بأن تلك الطفلة قطعة من قلبه، وجزء من روحه.

فضمها إلى قلبه، وشعر وهو يضمها كأنه يضم الدنيا بأسرها.

وهذه حال الإنسان على هذه الأرض.

فهو يتمنى دائماً ويشتاق أبداً.

إلا أن الأقدار تعانده فتنثر آماله وتذري أشواقه لتحمل إليه ما تريد هي.

ويجد نفسه راضياً بما أرادته الأقدار وبما فرضته تلك اليد الخفية المقدسة التي تدبر هذا الكون بحكمة عجيبة غريبة تذهل الألباب.

والأمير سميح الشهابي كان يتمنى أن يكون أباً لطفل.

إلا أن الله سبحانه وتعالى أراده أباً لطفلة.

وعندما شاهد عطية الله عزّ وجل، رضي بها وقنع بالعطية السمحاء.

ووثب الأمير سميح الشهابي إلى زوجته الحسناء الأميرة هند المعنية يسألها: ما هو الاسم الذي سنطلقه على طفلتنا يا هند؟!

وتمتمت هند: لك أن تطلق عليها ما تريد يا حبيبي يا سميح.

وقال سميح: إنني أترك لك حرية الاختيار يا هند، الاسم الذي يقع اختيارك عليه هو الاسم الذي يطلق على طفلتنا الحلوة.

قالت هند: إنني لأتمنى أن أستعيد اسم ناهدة. اسم أمي الراحلة عن هذه الدنيا الفانية يا سميح. هذا الاسم يعيد إلى ذاكرتي تلك الأم البائسة المسكينة التي حرمتني منها الأيام قبل أن أستطيع ردّ جميلها علي.

قال سميح: وأي إنسان يستطيع أن يفي ما لأمه عليه من ديون. لعمري لو قدم الإنسان لأمه نور عينيه وحبة قلبه، وحشاشة روحه، لو عقد لها النجوم عقداً والأقمار سواراً والشموس وشاحاً لظل مديوناً لها. كل ما في الأرض من حنان وعطف وأشواق لا يوازي ذرة صغيرة من محبة الأم لفلذة الكبد.

قالت: إذاً توافق على اسم ناهدة نطلقه على صغيرتنا؟

قال: أوافق يا حبيبتي، أردت اسمها ناهدة وسيكون هذا هو اسمها. لن أخالف لك أمراً يا حبيبتي يا هند.

وعاد إلى ضم الطفلة الجميلة إلى قلبه متمتماً: ناهدة!.. ناهدة!.. ناهدة!..

وتمتمت الأميرة هند: أرجو أن لا يكون حظها من الحياة كحظ المرحومة جدتها. إنني لأسأل الله أن يفرش طريقها بالهناء ويغمر سبيلها بالورود والزهور والرياحين.

وتناولت هند الطفلة من أبيها تضمها إلى قلبها وتتمتم: يا حياة أمك يا حبيبتي يا ناهدة.

وخيّمت السعادة الوارفة على قصر الأمير سميح الشهابي.

وكانت الطفلة ناهدة تملأ القصر غبطة وأنساً وبشرى وسلاماً.

الفصل الثاني

سرحال الدوار في قصر الأمير سميح الشهابي يطلب المثول أمام ربة القصر الأميرة هند.

وأذنت الأميرة هند لخادمها السابق بالمثول بين يديها.

ووقف سرحال الدوار أمام الأميرة هند على ذلّ وانكسار.

وكان يرتدي ثياباً رثة بالية، وهو حافي القدمين مشعث الشعر أصفر الوجه هزيل الجسد.

وأشفقت الأميرة هند عليه.

وسألته: ما بك يا سرحال؟ ماذا أصابك؟ ماذا دهاك؟

وتمتم سرحال بذلّ ووجوم: لقد جار عليّ الدهر، يا سيدتي هند، فخسرت كل أموالي وبعت كل أرزاقي.

وبكى سرحال وهو يروي للأميرة الحسناء مصيبته.

وبكت الأميرة الرقيقة القلب لبكاء خادمها الأمين.

وقالت له: أنت يا سرحال صاحب فضل علينا. كنت تخدم والدي بإخلاص. إخلاصك لن يضيع عند ابنة الأمير ناصر المعني. لك أن تطلب ما تريد.

قال: لا أطلب شيئاً يا سيدتي هند سوى أن أعود إلى خدمتك.

قالت: ستعود.

قال: سأعتني بزهور القصر وبأشجار الحديقة المثمرة وببساتينكم وأرزاقكم من دون مقابل. أنا لا أريد أجرة لأتعابي. كل ما أريده من دنياي هو الراحة والاستقرار. كوب ماء ورغيف خبز وبصلة تكفيني.

فطيبت الأميرة خاطره: لا يا سرحال. زوجي لن يرضى ببذل عرق جبينك في أرضنا من دون أن تتقاضى ثمن العرق. أنت ستأكل كما نأكل، وتنام في سرير وثير وتتقاضى أجرة أتعابك.

ودعت الخدم إلى الاعتناء بخادمها سرحال وإلى تهيئة الغرفة الكبيرة القائمة في الحديقة فوق قبو محدودب الظهر هزيل، لتكون مقراً لسرحال الوفي الأمين.

وأقام سرحال في تلك الغرفة على اطمئنان وهناء.

وكانت الأميرة هند تشفق عليه، فترسل إليه مع الخدم أطيب المأكولات وأشهى الخمور.

وكان سرحال يتفانى في خدمة الأميرة هند وزوجها الأمير سميح.

هذا في الظاهر.

أما في أعمق أعماق روحه فكان يهيئ لهما مكيدة مخيفة.

كان يريد القضاء عليهما انتقاماً لقلبه الصريع.

آل المعني سيدفعون غالياً جداً ثمن إثخان قلبه بالجراح.

وسرحال لم يكن قد أصبح فقيراً كما ادعى.

لا. فهو ما زال يتربع على قمة هائلة من الغنى والبحبوحة واليسر.

وما ادعاؤه الفقر والمرض والجوع إلا تنفيذ لخطة رسمها وعزم على تحقيقها.

والخطة تلك كانت تهدف إلى قتل الأميرة هند وقتل زوجها الأمير الشاب.

سرحال الدوار لن يهدأ له بال إلاَّ وقد شفي غليل شوقه إلى الانتقام.

كل ما نزف في قلبه من دماء سيستعيده من دماء هند ودماء زوجها الأمير.

هذه الفتاة لم تكن له. إذاً لن تكون لسواه.

يجب أن تموت الأميرة هند، يجب أن تموت.

وكانت الخطة التي رسمها سرحال الدوار لقتل الأميرة هند وزوجها الأمير سميح الشهابي تنحصر في صرعهما بالسم.

سيدس لهما السم الزعاف في الطعام، طعام العشاء.

ثم يركن للفرار متبطناً ظلمة الليل المدلهم البهيم.

وسرحال الدوار استعد لكل شيء.

أحضر معه كمية من السموم تكفي لقتل عشرين هند وعشرين سميحاً.

وأخفى السم في مكان أمين لساعة الانتقام.

وكان ينوي دس السم للأميرة وللأمير فور وصوله إلى القصر، إلا أن منظر الطفلة الصغيرة الجميلة ناهدة أثار الشفقة في قلبه وبعث الحنان والحنين إلى فؤاده.

إذا قتل الأميرة هند قتل الأميرة الصغيرة ناهدة فكأن هذه على ارتباط بحياة تلك.

الأميرة هند تموت بالسم وطفلتها الأميرة تموت جوعاً بعد أن تفقد لبن أمها.

والصغيرة ناهدة لم تتجاوز الأشهر الثلاثة.

وهي لن تستطيع العيش دون أمها إلا وقد أكملت السنة.

لا بأس سرحال الدوار سينتظر تسعة أشهر ريثما تكبر الطفلة الصغيرة.

حتى المجرمون يجدون في الأطفال رادعاً لإجرامهم وناهياً لآثامهم وحافزاً لضميرهم الميت، للانبعاث.

وأقام سرحال الدوار على انتظار انقضاء الأشهر التسعة على أحرّ من الجمر.

إنه يتوق إلى معانقة طيف الانتقام الرهيب.

سرحال لن يهدأ على حال إلا وقد انتقم من هند ابنة الأمير ناصر المعني.

وكان كلما أوى إلى فراشه تذكر أن حبيبته هند بعيدة عنه، فتثور الغيرة العمياء في قلبه.

ويتمرد على الكرى، ويجلس في فراشه يبكي بكاء مراً بدموع غزيرة حمراء.

وخيّل لسرحال أن الانتقام وحده سيطفئ جذوة الغيرة والحقد والبغضاء في قلبه.

سرحال الدوار لن يرتاح إلا وقد شاهد حبيبته هند جثة هامدة. صحيح أنه إذا قتل هند خسرها إلى الأبد وأنه لن يراها أبداً.

ولكن لن يراها هو ولن يراها أحد غيره أيضاً.

عندئذ، وعندئذ فقط، يستطيع أن يتغلب على الدموع، وأن ينام الليل ملء جفونه.

وطال انتظار سرحال ا[illegible]

وسارت الأيام واللياا[illegible]ـطء واتئاد خطى.

وكل يوم ينقضي تنطو[illegible]ـحة من أحلام سرحال وآماله.

وكل ليلة تمر يمر فيها ألف شبح وشبح وألف سيف وسيف في قلب سرحال.

ومضت الأيام، ومضى سرحال في سكب الدموع: متى متى تنقضي الأشهر التسعة وتدرج الطفلة ناهدة في سنتها الثانية.

ويصبح سرحال الدوار قادراً على الفتك بتلك المرأة التي فتكت بقلبه وصرعت فؤاده الهائم المولع الولهان؟

وأقام سرحال الدوار على انتظار ممضّ.

الخطة جاهزة والسم موجود، والهمة الشماء مشحوذة متأهبة للوثوب، والانتظار مرير . . .

وكانت الأميرة هند تعطف على سرحال عطفاً شديداً.

وكانت تشفق عليه فتتحفه بأطايب الطعام وبمفاخر الثياب، وتجود عليه من حين إلى آخر بحفنات من المال.

لا بأس، هذا الرجل كان خادماً في هذا القصر الذي تعيش فيه الآن، يوم كان والدها على قيد الحياة.

إنها تنشق فيه بقايا رائحة ذلك الزمان الآفل الغابر البعيد.

وكان سرحال الدوار يتقبل هدايا الأميرة هند وعطاياها بالشكر الجزيل.

ويدعو لها بطول العمر.

يا للخبث والمكر والدهاء.

إنه يدعو لها بطول العمر، وهو الذي عزم على أن يضع حداً لحياتها، لهذا العمر القصير بعد شهور قليلة مسرعة في المسير.

وانقضت الأشهر التسعة.

ودرجت ناهدة طفلة الأمير سميح الشهابي في سنتها الثانية.

وعرف سرحال الدوار الابتسام.

وراح يستعد للتنفيذ، تنفيذ خطة الفتك بالأميرة هند وبزوجها الأمير سميح الشهابي.

وتفقد حفنة السم فإذا هي حيث وضعها.

لم يمسها أحد ولم يعرف بها أحد.

وأخرجها من المخبأ وأخفاها في جيبه.

وضرب موعد التنفيذ، تنفيذ خطته الدنيئة السافلة.

هذا المساء ستطير روحان من هذا القصر الشامخ المنيف إلى الخالق الديان. روح الأميرة هند وروح الأمير سميح.

وما إن أسدل الليل أستاره المدلهمة على جبال لبنان حتى كان سرحال يتأهب لتنفيذ جريمته المخيفة النكراء.

وتسلل إلى المطبخ، واغتنم فرصة انشغال الخادم والطاهي بإعداد الطعام وألقى حفنة السم المميت في الطعام.

وأقام يرقب النتيجة . .

من المؤكد أن الأمير والأميرة سيموتان فور تناولهما الطعام.

وراح يعد العدة للفرار.

سرحال لن يظلّ في القصر بعد مصرع الأمير والأميرة.

لا . فهو سيهرب إلى مكان بعيد، بعيد جداً عن بعقلين حيث لا يعلم بأمره أحد.

وما إن حان موعد العشاء حتى جلست الأميرة هند قرب زوجها الحبيب يتناولان الطعام.

وما إن استقر الطعام المسموم في أحشائهما حتى ظهرت عليهما عوارض التسمم.

وقبل أن يتمكن الأهل والأقارب من إسعافهما كانا قد دخلا في طور الاحتضار.

وأدركت الأميرة هند أنها راحلة عن هذا العالم الفاني فنظرت إلى زوجها المحتضر تتمتم: سميح!.. وصيتي إليك أن تهتم بأمر ابنتنا ناهدة.. إنني أموت، لن يسمح لي الله بأن أضم ناهدة إلى قلبي وأن أفرح برؤياها بعد اليوم.

وتمتم الأمير سميح الشهابي: هند، أنا راحل قبلك عن هذه الفانية. طفلتنا الصغيرة ستعيش يتيمة على هذه الأرض، لا أب ولا أم. يا ويلها يا ويلها!

وتبادلا بعض نظرات الوداع.

ولم يطل احتضارهما.

فقد أصبحا جثتين هامدتين بعد تناولهما السم الزعاف، بقليل.

ووقف سرحال الدوار ينظر إلى ضحيتيه، وهو يرتجف من الخوف.

يا ويله من غضب الله تعالى!

ماذا فعل سرحال الدوار ماذا فعل؟

لقد ارتكب جريمة مخيفة.

قتل الأميرة هند حبيبة قلبه، وقد خيل إليه أن مصرعها يريحه من عذابه.

إلا أن موت الأميرة الحسناء ما كان إلا ليزيد النار المتقدة في قلب سرحال اتقاداً، واللهيب المشتعل في فؤاده الولوع اشتعالاً.

وشاهد الطفلة الصغيرة تحبو نحو جثة أمها، وهي تبكي بدموع غزيرة دون أن تعلم سبب بكائها.

فكاد قلبه الأثيم ينفجر في صدره.

وإذا به يثب إلى الطفلة الصغيرة الباكية يحملها بين يديه، ويخرج بها من القصر على غير هدى طاوياً الجبال والأودية والتلال.

هارباً من شبح الجريمة المخيف.

وشبح الجريمة يمعن في مطاردته.

ويلحق به أين اتجه وأنى قصد ويمّم وسار.

واهتزت بعقلين عروس الشوف للجريمة المروعة.

وأسرع شقيق الأمير سميح الشهابي، الأمير سالم الشهابي باكياً أخاه بدموع غزيرة، مطالباً الأمير فخر الدين المعني بالاقتصاص للدم البريء والقضاء على المجرم الأثيم.

واهتم الأمير فخر الدين اهتماماً بالغاً للجريمة الواقعة في عاصمة إمارته.

على قيد أمتار قليلة من قصره الجبار.

وثار الأمير...

وأشار إلى رجاله بضرورة اكتشاف القاتل واعتقاله.

إنه يريد أن يعدمه الحياة.

لا حياة للمجرمين الأشقياء الأشرار في عهد الأمير فخر الدين المعني في لبنان.

وانطلق رجال الأمير فخر الدين في إثر سرحال الدوار، وقد أدركوا أنه هو القاتل الأثيم.

إلا أنهم لم يتمكنوا من العثور عليه.

لقد شقت الأرض وابتلعته.

فلم يبن له وللطفلة الصغيرة ناهدة أي أثر في ربوع لبنان الجبل الشامخ الجبار القائم أبداً على مجد وعظمة وتيه وجلال.

وغضب الأمير فخر الدين المعني غضباً شديداً.

هناك امرأة من الأسرة المعنية وشاب من الأسرة الشهابية قتلا بالسم.

والسم كان قد ظهر على الجثتين بأجلى مظاهره، على جثة هند وعلى جثة زوجها سميح الشهابي.

وجمع الأمير فخر الدين رجال الأمن في قصره.

وعقد وإياهم اجتماعاً طويلاً بحثوا فيه قضية مصرع سميح الشهابي وزوجته هند المعنية.

وقال الأمير: المجرم يجب أن يعدم. لا يجوز أن يظل على قيد الحياة يعيث فساداً في هذه الربوع. ليس ثمة مكان للإجرام في إمارة فخر الدين المعني. والله والله إذا لم تقبضوا على قاتل سميح الشهابي وهند المعنية لأنزلنّ بكم جميعاً الهوان. هذا هو لبنان. قراه ومدنه ومزارعه كلها أمامكم، ابحثوا فيها عن سرحال الدوار وأحضروه إلي مكبلاً بالحديد. أريده خلال ثلاثة أيام وأريد معه الطفلة الصغيرة البريئة التي اختطفها من قصر أبيها. أنا لا أريد أن أشعل نار الفتنة في هذه الربوع. مصرع الأمير سميح الشهابي يثير الشهابيين عليّ وهم الطامعون في الاستيلاء على الحكم في لبنان. إنهم يحصون عليّ جميع أعمالي وكل خطواتي، لن يتورعوا عن إثارة الشعب ضدي وقد قتل أحد أبنائهم في بعقلين دون أن يتمكن فخر الدين من اعتقال القاتل. أريد القاتل. أريده فوراً. أتدركون خطورة الحال؟

فأطرقوا رؤوسهم على صمت، واستأنف الأمير الكلام، فقال: اذهبوا باحثين عن سرحال الدوار، المجرم الأثيم. ولا تعودوا إلي إلا وهو بين أيديكم مكبلاً بالحديد. أتفهمون؟..

قالوا: أمر الأمير مطاع. سرحال الدوار سيكون بين يديكم يا مولانا الأمير.

وانطلقوا باحثين عن سرحال الدوار.

وطافوا قرى الشوف قرية قرية.

إلا أنهم لم يهتدوا إلى أثر لسرحال الدوار.

ولا للطفلة ناهدة ابنة الأمير سميح الشهابي.

ولم يتنابهم اليأس.

ولا عرفوا إلى الراحة سبيلاً. إنهم يعملون الليل والنهار باحثين عن المجرم الشرير.

وأخيراً وبعد بحث طويل، علم رجال الأمن أن ابن الدوار نزح عن قرى الشوف..

إلى أين؟.

قيل لهم: لقد نزح عن بعقلين إلى عاليه، ومن عاليه ملف إلى بيروت.

ولحقوا به إلى بيروت، والآمال الرحاب تحثهم على المضي في البحث والتفتيش.

وعلموا أن سرحال أقام في دار أرملة حسناء على شاطئ البحر المترامي الأطراف في بيروت.

وشخصوا إلى دار الأرملة سائلين عن سرحال.

ولم يجدوه. ما هناك سوى صاحبة الدار الأرملة الحسناء سليمة الدامي.

واقتحموا الدار. يا سليمة الدامي أين هو سرحال الدوار؟

فابتسمت سليمة: جاء إلي. فأقام عندي أسبوعاً كاملاً ثم رحل. إلى أين رحل؟ لست أدري.

قالوا: هل جاءك وحده؟

قالت: كان يحمل على ذراعيه طفلة لم تتجاوز السنتين من عمرها. وكانت الطفلة تنادي أمها بكلمات محطمة تثير الأسى والدموع. وكان سرحال الدوار مرتبكاً قلقاً مضطرباً كأن ثمة جريمة تطارده.

قالوا: ألا تعلمين إلى أين اتجه؟

قالت: لا والله. أنا امرأة بائسة استقبل المسافرين في هذه الدار، وأتقاضى منهم أجرة النوم والطعام والشراب.

وانصرف رجال الأمن، وقد أيقنوا من براءة سليمة الدامي.

وعادوا إلى البحث عن سرحال. سرحال الدوار لن يفلت من أيديهم.

سيقبضون عليه حتماً إن لم يكن عاجلاً فآجلاً.

وما إن خرج رجال فخر الدين من دار سليمة، حتى أسرعت المرأة إلى إيصاد الباب.

وأزاحت الحصير لتفتح باباً في أرض دارها وتنادي: اخرج يا سرحال! اخرج!

وخرج سرحال من الدهليز والطفلة على يديه.

وابتسمت سليمة. وتمتمت: ادفع الثمن. هات. لقد أنقذتك منهم.

ففك سرحال الدوار كيسه ودفع.

دفع لسليمة ما طلبت من مال: بارك الله بك يا سليمة. لن أنسى لك معروفك ما حييت.

قالت سليمة: اخرج حالاً يا سرحال. أنا لا أستطيع أن أحميك منهم طويلاً. من يدري؟ قد يعودون إلى هنا ويكتشفون أمرك. اسرع اسرع بالهرب.

قال سرحال: هذه الليلة سأخرج من دارك متبطناً الظلام وأختفي. لن يعلم أحد مقر سرحال الدوار، ولن يتمكن الأمير فخر الدين المعني من القبض عليه.

وما إن بسط الليل جناحه الأسود على بيروت حتى كان سرحال الدوار يتشح بعباءة من صوف، ويلف الطفلة الصغيرة بقطعة من صوف.

ويتشح بظلام الليل المدلهم، ويخرج من دار سليمة على غير هدى.

وكان سرحال الدوار يعلم يقيناً أن رجال الأمير فخر الدين لن يكفوا عن البحث والتنقيب والتفتيش عنه.

لقد علم أن رجال الأمير لن يهدأ لهم حال إلا وقد أيقنوا أنه رحل عن هذا العالم.

ولذلك فقد عزم على تضليلهم.

وأسرع إلى شاطئ البحر، قرب دار سليمة الدامي، ينزع عنه بعض ثيابه وبعض ثياب الطفلة ويلقيها على الرمال.

ولم ينس أن يترك في جيوب ثوبه بعض المال وبعض الأوراق التي تدل على أن هذه الثياب هي ثياب سرحال الدوار.

وأسرع بالمسير، وهو يضم الطفلة الصغيرة إلى قلبه، وهي لا تنفك عن البكاء والعويل وسكب الدموع.

ولم يخطئ ظن سرحال. فقد وجدت سليمة الدامي ثياب سرحال وثياب الطفلة في اليوم التالي على الشاطئ.

فخيل إليها أن سرحال انتحر مع الطفلة، ألقى نفسه وألقى الطفلة في البحر.

يا ضياع شبابك الريان يا سرحال الدوار.

وأسرعت سليمة باحثة عن رجال الأمير فخر الدين.

ستخبرهم قصة انتحار سرحال الدوار وتقبض ثمن البشرى.

لكل شيء ثمنه عند سليمة الدامي.

وأدركت سليمة رجال الأمير.

وقادتهم إلى الشاطئ: تعالوا انظروا! هنا ترك سرحال الدوار ثيابه قبل أن ينتحر. هذه هي الثياب.

والتقط رجال الأمير الثياب.

وفتشوا جيوبها فعثروا على المال والأوراق.

وبغتت سليمة وقد رأت رجال الأمير ينتزعون المال من جيوب ثياب سرحال.

يا لغباوتها لو فتشت هذه الجيوب لحظيت بالمال.

لقد ضاعت عليها تلك القطع الفضية. يا لبلاهتك يا سليمة الدامي!

وحمل رجال الأمير فخر الدين ثياب سرحال وثياب الطفلة إلى الأمير ناعين إليه سرحال الدوار والطفلة ناهدة الشهابي: لقد انتحر سرحال الدوار وقتل معه الطفلة الصغيرة بعد أن تأكد من أنه لن يستطيع النجاة من بين أيدينا.

فأمر الأمير فخر الدين بإذاعة نبأ مصرع سرحال الدوار قاتل الأمير سميح الشهابي وزوجته الأميرة هند، في القرى اللبنانية ليطمئن الشهابيون الناقمون على فخر الدين، والراغبون أبداً في النيل من سمعته وبطشه وحزمه ومقدرته العصماء.

الفصل الثالث

1

الحر الشديد يلفح الجبال والتلال والوهاد والأودية في لبنان.

فالفصل فصل الصيف، والشمس المحرقة في كبد السماء تسكب نورها ونارها على جبال لبنان.

فتلهب الأجساد، وتذيب الأكباد.

وتغمر اللبنانيين بالحرارة المتقدة الأنفاس المشتعلة النفثات.

وهدأ النسيم العليل، فلا غصن يتهادى.

ولا نسمة تتمايل على أذرع الأشجار الممدودة أبداً نحو السماء تستجديها الغيث وتستعطيها الندى المدرار.

ولجأ اللبنانيون إلى بيوتهم، وإلى خيامهم المنصوبة فوق السطوح يتقون فيها حرارة الشمس اللاهبة ونورها المذيب.

والكل على وهن وهدوء.

فالحر الشديد أهاب بهم إلى الانقطاع عن الأعمال.

هذا في السواحل والقرى المنخفضة الجوانب.

أما في أعالي الجبال فلم يستطع الحر الشديد أن يرخي سدوله على أبنائها.

فانصرف أولئك الأبناء إلى العمل.

العمل المتواصل الشاق في الحقول والبساتين.

غير عابئين بالشمس الساكبة لهيبها عليهم.

وهل يخشى القرويون الفلاحون، أبناء الأرض الطيبة العطور، الشمس المحرقة، وهناك أشجار السنديان والعفص والشربين تحجب عنهم نورها وترد عن أجسادهم لهيبها؟

وهل يستطيع الحرّ القوي الشكيمة أن يلهب بسياطه أجسادهم، وهناك الينابيع المتفجرة من الصخور سلسبيلاً عذب المذاق رقراق الدموع؟

لا، إن أبناء القرى والقمم الشماء ما أبهوا للصيف.

والصيف لا يستطيع أن يرد عنهم النسائم العطرة.

ولا أن يحرمهم عذب المياه وصفاء الينابيع؟

وفي حين تبرم أبناء السواحل والتلال المنخفضة من هجير الصيف الملتهب الأنفاس، نعم أبناء الجرود العالية بأطايب النسمات.

وصفاء مياه الينابيع والأنهر والجداول العذبة الصافية المعطاء.

وهناك على طريق بلدة ميروبا في أعالي جرود لبنان شاب يمتطي صهوة جواد أصيل.

ويلف رأسه بكوفية مزركشة بالحرير المقصب يطوي الطريق الوعر المسالك، المحفوف بالأشواك، المنساب من الساحل إلى الأعالي كانسياب الأفعى في السهل الرحيب.

ولاح من الشاب، ومن جواده الأصيل، وثيابه الأنيقة، ونظراته الآمرة الأبية، أنه ابن أسرة تأمر وتطاع.

وكان جواده الأصيل يلهث من التعب.

والشمس قد لوحت وجهه الأسمر الجميل ساكبة عليه بهاء من بهائها وجمالاً أسمر المسحة من جمالها.

وبدا من الجواد أنه يأبى المسير.

غير أن الفارس المغوار أبى إلا أن يكمل الطريق ويصل إلى ميروبا، إلى دار الشيخ نسيب الخازن قبل المغيب.

وأبى الجواد المسير.

وأصر الفارس على اجتياز الطريق، والشمس قد بدأت تتأهب للانحدار وراء ذلك الأزرق الزجراج المتلاطم الأمواج الفسيح الأرجاء.

وأخذ الشاب يلهب ظهر الجواد بالسوط.

وصهل الجواد، وثار، وتراجع إلى الوراء متأهباً لإلقاء فارسه عن متنه إلى قعر الوادي السحيق العميق المجهول القرار.

وإذا بفتاة رائعة الحسن والجمال، قوية البنية تائهة النظرات، تثب إلى الجواد ممسكة باللجام وتشده بقوة هائلة فتجبر الجواد على الوقوف.

وأنقذت الفتاة الحسناء الشاب من الموت.

ووثب الشاب عن ظهر الجواد يشدّ يد الفتاة الجميلة القوية، الكامنة العافية في زنديها والقوة في عينيها شاكراً لها جميلها.

قال: شكراً لك يا أختاه فقد أنقذت حياتي من الموت.

وكان لطيفاً في شكره هادئاً في حديثه.

أما الفتاة فكانت شرسة الأخلاق قاسية الفؤاد نائتة الكلمات.

قالت: في المرة التالية لا تجبر الجواد على المسير لئلا يقذف بك إلى الوادي السحيق فيدق عنقك ويقصف عمرك.

وأدارت ظهرها على كبرياء وعظمة وجلال.

وسارت في سبيلها متسلقة الصخور بخفة ورشاقة واعتداد.

ولحق الشاب بها.

ـ أختاه. أود التعرف إلى اسمك لأردّ لك الجميل.

وتوقفت الفتاة عن المسير، لتتمتم بكبرياء: لن تستطيع أن ترد

الجميل بالمثل. فجوادي يطيع أوامري. لن يحاول القذف بي إلى الوهدة.

قال: هل لي الشرف بالتعرف إليك؟

قالت: لا.

واستأنفت المسير، واستأنف اللحاق بها.

وأدركها ليقول: أنا الأمير رئبال ابن الأمير سالم الشهابي.

وخيل للشاب أن الفتاة ستقف منه على احترام وإجلال، وقد علمت أنه أمير ابن أمير.

إلا أنه أخطأ مرماه.

فالفتاة ما أبهت له.

كأنها ابنة أمير من سلالة الأمراء مثله.

قال الأمير: أيمكن أن أعلم من تكون سيدتي؟

وتمتمت الفتاة: أنا دلال ابنة حسيب عبد الله.

وابتسم رئبال على هزء: لا هي أميرة ولا شيخة، ولا حتى وجيهة معروفة.

إلا أن الحسن الرحيب الرائعة فيه والجمال القروي البعيد المدى أهابا بالشاب إلى الوقوف أمامها وقفة الاحترام والتقدير.

وشاء رئبال التحدث إلى دلال.

هذه الفتاة الرائعة الجمال تفرض الاحترام.

وتجبر الناظر إليها على الإعجاب.

رئبال الشهابي لن يسير خطوة واحدة إلا وقد أوقع الفتاة في شباكه.

هذه فتاة لن تفلت منه.

وتقدم منها ليتمتم: لقد تشرفت بالتعرف إليك أيتها الآنسة دلال. وأرجو أن أتمكن يوماً من رد جميلك. أنا ذاهب إلى ميروبا. هل أستطيع أن أراك في عودتي؟

فوقفت الفتاة على ارتياح.

وتمتمت: إلى ميروبا؟ ولكن ميروبا ما زالت تبعد مسافة شاسعة، سيدركك الليل قبل الوصول إليها.

قال: ولكنني مجبر على الذهاب.

قالت: يحسن بك أن تستريح الليلة عندنا، وتستأنف المسير غداً.

-: عندكم؟ وهل تكون داركم قريبة من هنا؟

فأومأت برأسها أجل، وسارت أمامه دون أن تنبس بحرف.

وترجل عن جواده وسار وراءها على مهل.

وتوغلا في الحرج الظليل يسيران معاً على ضفة «نهر العسل»

المنساب بين تلك الأودية والسفوح على أناشيد خالدة وترانيم شجية يسبح الله في كل نغمة من نغماته، وفي كل وشوشة من وشوشاته المسكوبة في أذن الطبيعة على فتنة وروعة وجمال.

ووصلت الفتاة قرب طاحونة هرمة محدودبة الظهر تنوء تحت ثقل السنين الطوال.

ورفست الفتاة الباب برجلها ففتح، ودخلت إلى الطاحونة، ودعت الشاب للدخول: تفضل، تفضل ادخل يا سيدي.

وربط رئبال الشهابي الجواد أمام باب الطاحونة الهرمة العجوز.

ودخل. . . ووقف ينظر إلى الفقر الباسط جناحيه على تلك الطاحونة الخرساء.

ما هناك سوى غبار الدقيق العالق على جدران الطاحونة والذي سكب على تلك الجدران السوداء وشاحاً من بياض أغبر هزيل.

وأسرعت دلال إلى شراب من الدبس والتمر تقدمه للشاب: تفضل اشرب يا سيدي. بعد قليل يحضر والدي فتتعرف إليه. . تفضل، تفضل، هذا شراب لذيذ صنعته بيدي.

وتناول رئبال الكأس يفرغها في فمه على حنق.

لقد قالت الفتاة إن والدها سيحضر بعد قليل كأنه في غاية الاشتياق إلى والدها. . .

الحمد لله لقد طمأنته بعودة ذلك الوالد قريباً وهو الذي يتمنى أن يظل مع الفتاة وحدها.

وتمنّى رئبال الشهابي أن يطول غياب والدها الكريم.

إلا أن الظروف لم تسعده، فالوالد العزيز أطل في كهولة يجللها البياض.

وتسكب عليها السنون البعيدة المدى، الرصانة والهدوء والطمأنينة والسلام.

ونظر والد دلال إلى الشاب على عجب ودهشة، وحوّل نظره إلى ابنته.

وكأن نظراته تسألها: من يكون هذا الشاب يا دلال؟

وأدركت الفتاة ما يجول بخاطر الوالد الكريم.

فتقدمت منه تقول: إنه الأمير رئبال الشهابي يا والدي. كان متوجهاً إلى ميروبا وأدركه الظلام فدعوته للمبيت عندنا على أن يستأنف سفره في الصباح.

والتفتت إلى الأمير تقول: إنه والدي، والدي حسيب عبد الله.

وتقدم رئبال من الكهل مادّاً يده للسلام عليه.

إلا أن حسيباً وقف واجماً، وأخذ يحدق في وجه رئبال كأنه يقرأ فيه صفحة الماضي الرهيب.

واستغرب الأمير رئبال وقفة الكهل، ووقف صامتاً.

وبعد فترة صمت قصيرة عاد الكهل إلى الابتسام.

ومد يده مسلّماً على رئبال متمتماً: أهلاً وسهلاً بالأمير ابن الأمير. تفضل يا ابني. تفضل بالجلوس.

وجلس رئبال... وجلس حسيب عبد الله قربه، واستأنف التحديق في عينيه...

وتمتم: الأسرة الشهابية من خيرة الأسر اللبنانية يا ابني.. إنني أعرف الكثيرين من أبنائها الميامين. ابن من أنت يا ابني؟.

قال رئبال: أنا ابن الأمير سالم الشهابي.

- سالم؟.. سالم الشهابي؟!

وظهر الذعر في عيني الكهل، إلا أنه أخفى ذعره بابتسامة صفراء، ولجأ إلى الصمت العميق ينغمس فيه.

وبعد صمت طويل، استأنف الشيخ الكلام.

قال: من أي بلد قادم أيها الأمير الشاب؟

قال رئبال: إنني قادم من بعقلين، وأنا في طريقي إلى ميروبا، إنني رسول والدي إلى الشيخ نسيب الخازن.

وعاد حسيب عبد الله إلى الصمت والتفكير.

واغتنم رئبال فرصة انغماس الكهل في التفكير.

فراح يخالس دلالَ النظرات التائهة الهائمة السمحاء.

وكانت دلال تحاول أن تخفف من فتور استقبال والدها للأمير.

فراحت تبادل الأمير نظراته الولهى بنظرات بريئة تنم عن صفاء قلبها وهدوء روحها وحنينها وحنانها.

ولاح للأمير الشهابي أن الفتاة ليست بعيدة عن قلبه.

إلا أنه يأبى أن يعترف بالحقيقة: لا، لا، هو لن يحبها. لن يحبها. هل يمكن أن يحب فتاة منذ النظرة الأولى؟

هل الحب غمامة تمر في القلب مرور السحاب في الفضاء؟

وطال صمت حسيب عبد الله.

وطال تبادل النظرات التائهة بين رئبال ودلال.

وخيم الصمت الرهيب على الطاحونة المحدودبة الظهر البارزة العظام المثقلة بالسنين الطوال.

وود رئبال الشهابي أن يطول صمت الكهل وتفكيره ووجومه، لتطول مناجاته ذلك الوجه الباشّ الماثل أمام عينيه، وجه دلال عبد الله.

ودلال نفسها تخلت عن وقارها وكبريائها وقد لاح لها الشاب الوسيم في نظراته التائهة الحيرى المغمورة بالحب والهيام.

والنساء يشاهدن نور الحب من خلال نظرات المحب.

تلك النظرات هي الطريق المعبّد إلى قلوب النساء الطافحة بالغموض والأسرار.

فكأن النظرة عبير الهوى والحنين.

وكأن العين مفتاح القلب الذي يشرع باب الحب والحنان.

وأدركت دلال أن رئبالاً متيم بهواها.

أدركت أن الأمير وقع صريع الهوى فارتاحت لوقوعه.

وهي لم تكن بأفضل منه.

فهي أيضاً قد كَبَتْ في الطريق.

وعثرت، فإذا بها دامية القلب مجروحة الفؤاد.

وبعد صمت طويل، مزّق الكهل حجب السكينة، وقطع على الأمير وعلى ابنته لغة الحنين الصامتة الشجية.

قال: الليل قطع شوطاً بعيداً، وها النجمة الحمراء قد بدأت تميل فوق الطاحونة مبشرة بقرب انتصاف الليل.

فالنجمة الحمراء ساعته في الليل، وظل السنديانة الحانية على الطاحونة ساعته في النهار.

ودعا الشيخ الأمير إلى النوم، وأشار إلى ابنته بالدخول إلى القبو المتسكع على عتبة الطاحونة: ادخلي يا دلال إلى القبو ونامي. أما أنا فسأنام هنا في الطاحونة مع الأمير.

ونهضت دلال تلبي أمر الوالد الحبيب.

وودعت رئبالاً بنظرة حائرة تائهة.

واستلقى الأمير على فراش من قش.

هذا هو فراش حسيب عبد الله صاحب الطاحونة.

لقد تنازل عنه الليلة لضيفه الأمير.

واتكأ حسيب عبد الله على «بلاس» من صوف أسود قاتم..

وعاد الصمت يخيم على الطاحونة.

ويزيد رهبة الليل رهبة، وخشوعه خشوعاً، وأحلامه الوارفة الظلال أحلاماً هانئة سعيدة.

* * *

أنهى رئبال الشهابي مهمته لدى الشيخ نسيب الخازن في ميروبا.

وقضى في ضيافة الشيخ الخازني ثلاثة أيام، وقفل عائداً أدراجه.

وتعمّد المرور بالطاحونة الهادئة في عودته ليمتّع نظره بذلك الجمال الطافح بالسناء.

ويرى تلك الفتاة ابنة حسيب عبد الله التي تمكنت من غزو قلب الأمير الشاب.

وإذا بالطاحونة مقفلة الباب.

ووقف الأمير رئبال يطرق باب الطاحونة.

إلا أنه لم يكن ثمة من مجيب.

وطال وقوف الأمير الشاب بباب الطاحونة.

وطال طرقه الباب، وطال الصمت والهدوء. ومرّ بالطاحونة معاز وراء قطيعه فناداه الأمير، وسأله: قل لي يا عماه. أين هو صاحب هذه الطاحونة؟

ـ حسيب عبد الله؟

ـ أجل، حسيب عبد الله.

ـ رحل أمس مع ابنته عن هذه الربوع بعد أن باع طاحونته إلى الشيخ عبود فرحات.

ـ وإلى أين توجه؟

ـ لست أدري.

وسار المعاز وراء قطيعه، وهو يعزف الألحان الشجية على نايه القصبي فتتكسّر تلك الألحان في أذن الأمير رئبال أنيناً وحنيناً ولوعة ولهيباً محرقاً.

وقفل الأمير الشاب عائداً أدراجه.

إلى دار الشيخ عبود فرحات يسأله عن مقر حسيب عبد الله وابنته دلال.

وقلب الشيخ عبود شفتيه، وتمتم: والله لست أدري أين حطّت من حسيب عبد الله وابنته دلال الرحال. هذا الكهل غريب الأطوار. جاء إلى هذه الربوع مع ابنته منذ أكثر من عشرين سنة، وكانت هذه الفتاة الرائعة الحسن والجمال صغيرة، كانت طفلة، واشترى هذه الطاحونة منا، من آل فرحات وكان يعمل فيها مع ابنته بجد ونشاط. وكان منزوياً في طاحونته لا يكلم أحداً ولا يستأنس بأحد. لا يزور ولا يزار، إلا أنه كان طيب القلب، فلم يمس كرامة أحد ولم يتعدَّ على أحد، ولم يهن أحداً. وكنا جميعاً نحبه ونحترمه ونحفظ له في قلوبنا الود والصداقة والاحترام، أما ابنته دلال فكانت مثال الرصانة والكرامة والتهذيب، وكنا جميعاً في هذه الربوع نحترمها ونتمنّى لها السعادة والتوفيق. . . ومضت الأيام وحسيب عبد الله وابنته دلال يعيشان بيننا كما يعيش الأهل والإخوان، فلم يسبق لهما أن تركا في نفس أحدنا حنقاً أو نقمة عليهما. وأمس جاءني حسيب عبد الله والذعر في عينيه والخوف على شفتيه.

وقال: «هذه طاحونتكم التي اشتريتها منكم يا أبناء فرحات، أريد أن أرجعها إليكم. إذا أردتم إعادة مالي واستعادة الطاحونة أكون لكم من الشاكرين».

قلت له: ولماذا تريد بيع الطاحونة يا حسيب؟

قال: لقد عزمت على الرحيل عن هذه الربوع.

قلت: ولماذا؟ لماذا تريد الرحيل عنا بعد أن عشت بيننا أخاً حبيباً إلى قلوبنا؟

قال والغصة في صدره: «إنني لآسف يا حضرة الشيخ أن أفارقكم، وقد كنتم لي طيلة هذه المدة أهلاً وإخواناً، إلا أن ثمة ظروفاً قاهرة تضطرني إلى السفر. لن أبقى هنا، لن أبقى. لقد اتخذت قراري ولن أرجع عنه».

وحاولت ثنيه عن عزمه، إلا أنه أصر على السفر.

وقد اعتذر عن الإدلاء بالسبب الذي أهاب به إلى الابتعاد عن هذه الربوع.

واعتذر عن إعلان اسم المكان الذي يريد الشخوص إليه.

ونزلت عند طلبه فدفعت له ثمن الطاحونة واستعدتها منه.

وودعني وداعاً حاراً. . . وأمسك بيد ابنته ورحلا عن ربوعنا. إلى أين رحل؟ ولماذا رحل؟ لست أدري.

وشكر الأمير رئبال الشيخ عبود فرحات.

وعاد أدراجه، وهو على ألم روحي عميق. اختفاء دلال أشعل النار في قلبه. وأذاب روحه، وزاد في اتقاد اللهيب المشتعل في حنايا ذلك الخافق الموجع الولهان.

وراح الأمير رئبال الشهابي يطوي تلك الجبال والتلال والأودية على ظهر جواده الأصيل، مجتازاً الطريق البعيد بين ميروبا وبعقلين.

وهو غارق في تفكير عميق سحيق بعيد القرار.

وكان يفكر في تلك الفتاة الرائعة الحسن والجمال.

بدلال ابنة حسيب عبد الله..

أين هي الآن؟

أتراها تفكر فيه كما يفكر فيها؟

أتكون تلك العاصفة الهوجاء العمياء الصاخبة اجتاحت قلبها كما اجتاحت قلبه؟

أتحبه كما يحبها؟

نظراتها التائهة الولهى كانت تشير إلى أن قلبها مضطرم الجوى، متقد النار.

لقد كانت تبادله النظرات الملتهبة الحيرى.

من المؤكد أ[illegible]ه، وإلا فما معنى مبادلته النظرات؟

وانغمس [illegible]ل الشهابي في موجة صاخبة من التفكير.

وتمنى لو كان باستطاعته معرفة مقر دلال عبد الله.

إذاً لوثب إليها وأمسك بيدها وطار بها إلى حيث لا يعلم بهما أحد.

ويتزوج منها، ويعيش وإياها عيش الأزواج السعداء على هذه الأرض الفانية.

سيغضب أهله الأمراء، وسينقمون عليه لأنه تزوج من فتاة لا تنتسب إلى الإمارة.

فلا هي ابنة أمير، ولا هي ذات حسب أو نسب.

فليغضبوا، وليفعلوا ما يريدون. ما له ولهم؟

حسبه أنه يعيش قرب حبيبته دلال.

وعزم رئبال على البحث عن دلال.

سيبحث عنها في جميع أنحاء لبنان... وسيعثر عليها.

رئبال الشهابي لن يعرف للراحة طعماً إلا وقد عثر على حبيبة قلبه دلال عبد الله.

وشعر الأمير رئبال بحنين عميق إلى دلال.

فكأنه يعرفها منذ أمد بعيد.

كأنها قريبة إلى قلبه.

هذه الفتاة ليست ببعيدة عنه.

روحه تعانق روحها.

وقلبه ينبض نبضات قلبها.

وفؤاده يحن حنينها ويشتاق اشتياقها.

وسار الجواد به، وهو غارق في تفكيره.

ووصل إلى جونية بعد مسير طويل.

فرأى أن يرتاح في تلك المدينة الهادئة الساكنة الهاجعة على شاطئ البحر المتوسط الدائم الاضطراب على جمال وفتنة وبهاء.

وتوجه إلى دار متواضعة تستقبل المسافرين، أشبه ما تكون بالفندق اليوم.

وهي ذات طابقين.

الأول أطلق عليه اسم «خان» وهو معد للخيل.

والثاني أطلق عليه اسم «الرواق» وهو معد لنوم المسافرين.

وأسرع صاحب «الفندق» السعيد إلى استقبال الأمير رئبال الشهابي بالترحيب:

هذا أمير رفيع الشأن.

وجوده في فندقه يرفع من مقامه ويزيد في شهرته.

لن يقدر له كل آن استقبال الأمراء في فندقه الرحيب.

وقاد صاحب الفندق الأمير رئبال الشهابي إلى الرواق.

وسلم الجواد إلى خادمه ليعتني به.

هذا جواد الأمير ولا يجوز أن يعامل كما تعامل الجياد.

وما إن وصل الأمير رئبال إلى باب الرواق حتى وقف على دهشة ووجوم وارتباك.

وحاول الكلام فما استطاع.

وسمّرت عيناه في مقعد وثير تربعت فيه فتاة رائعة الحسن والجمال.

وتمتم الأمير بارتعاش واضطراب: دلال!.

والتفتت دلال: من؟ الأمير؟ ماذا جاء بك إلى هنا أيها الأمير؟

ـ دلال!.. ماذا فعلت بالأمير يا دلال؟ منذ أن تركتك في الطاحونة وتوجهت إلى ميروبا وطيفك ماثل أمامي، يأبى الانسلاخ عن روحي ويرفض الابتعاد عني. إنك في النور الذي أراه، وفي المياه التي أشربها، وفي العطر الذي أنشق شذاه. كيف اتجهت أراك أمامي، وأنى سرت أسمع هديل صوتك الشجي. كلما أغمضت عيني كي لا أراك يا دلال رأيتك في حبة عيني. وكلما سددت أذنيّ كي لا أسمع نجواك سمعت صوتك في أعماق أعماقي..

واضطربت دلال، وكلام الأمير رئبال يقع في أذنيها.

وحاولت الكلام فما استطاعت.

وأخذ قلبها ينبض بشدة، وغمرت الدموع عينيها.

واستأنف الأمير الحديث.

قال: لقد أدركت يا دلال أنني لا أستطيع الابتعاد عنك. أدركت أنني أحبك حباً مقدساً طاهراً قوياً. نعم أنا أحبك يا دلال،

أحبك بكل قواي، وجوارحي وروحي. . أنت مني الروح، أنت كل ما يملك رئبال الشهابي من آمال وأحلام وأشواق وأحزان وأفراح.

واقترب منها يمسك يدها ويشدها إلى قلبه.

وخفضت دلال نظرها إلى الأرض.

وأخذت الدموع تنهمر من عينيها منسكبة على يد الأمير.

ولم تكن دلال تعرف سبب بكائها.

كل ما عرفته هو حاجتها إلى البكاء.

أتكون السعادة التي نثرها الأمير أمامها دفعت الدموع إلى الانسكاب.

أم ترى الخوف من المستقبل المجهول أثار فيها الدمع فانسكب على وجنتيها؟

وتمتم الأمير: قولي يا دلال، أتحبين رئبالاً؟ أتكونين له؟

فتمتمت: ما نزل بك نزل بي يا رئبال، وما أصابك من ألم واشتياق أصاب دلال. الحب لا يغزو قلباً واحداً. دائماً دائماً يثب إلى قلبين يحتلهما ويصرعهما ويغمرهما بالدموع وبالدماء. . عندما وثب الحب إلى قلبك وثب إلى قلبي، وعندما غمر روحك وعصف بكيانك غمر روح دلال وعصف بكيانها.

قال: لن نفترق بعد اليوم يا دلال. سنعيش معاً ونموت معاً.

أنتِ لي أنا وحدي. سأطلبك من والدك وأسير بك غداً إلى بعقلين حيث نحتفل بعرسنا الهانئ الميمون.

فهمست دلال: لا، لا، إياك أن تفعل. لا تطلبني من والدي، والدي سيردّ طلبك.

ووجم رئبال: ماذا تقول دلال؟ هل جنت؟

أيمكن لحسيب عبد الله أن يرفض طلب أمير من الأمراء الشهابيين؟

وهل يطمع في أن يزوج ابنته إلى أفضل من أمير؟

والتفت إلى دلال يقول: لا أخال والدك رافضاً طلبي يا دلال. لا، لن يردني على خيبة أمل، لا سيما بعد أن أرضيه بما يريد من مال وجاه ونفوذ.

قالت: أنت لا تعرف والدي. إنه ليَهْزأ بالمال وبالجاه وبالنفوذ، فهو غريب الأطوار يحبني حباً أبوياً عظيماً ويأبى أن ينفصل عني. فهو يريدني على العيش معه طيلة العمر، ولعلّه هرب من الطاحونة في ضواحي ميروبا إلا خوفاً منك، خوفاً من أن تسلخني عنه.

قال: ما العمل إذاً يا دلال؟ ما العمل؟

قالت: دع الأيام تحلّ المعضلة. الأيام يا رئبال وحدها تستطيع أن تنقذ الإنسان من الورطات التي يرميه بها الزمن. إنها لصاحبة تفكير وذكاء وحكمة لم يصل إليها الإنسان بعد.

قال: لن أستطيع الانتظار. يجب أن تهربي معي، تعالي، تعالي يا دلال!.. سنرتدي الليل ثوباً فضفاضاً يحجب عنا العيون ونطير إلى بعقلين. وليفعل والدك ما يشاء.

فوجمت قليلاً، ثم قالت: لا يا رئبال. لا أريد أن أجرح قلب والدي. إذا فقدني فقد كل شيء في هذه الحياة.. لن أهرب معك، لن أهرب..

وأصرّت على الثبات في موقفها.

إلا أن رئبالاً ما يئس، بل راح يعمل على إقناعها بالهرب.

وتمكن بعد جهد كبير من حملها على الموافقة.

فرسما الخطة، خطة الهرب: غداً مع مطلع الفجر البعيد سيلتقيان عند شاطئ البحر الساجي الهادئ الطروب، هناك عند الرمال المنبسطة السمراء.

وأسرعت دلال بالتواري، أسرعت بالدخول إلى غرفتها، من الرواق، قبل أن يحضر والدها.

ودخل رئبال إلى غرفته، وهو يبني قصور الأحلام الشاهقة العالية الرائعة الجمال.

ولم تغمض لرئبال الشهابي عين طيلة ذلك الليل.

وكان الليل طويلاً على عيني رئبال: متى؟ متى يتوارى هذا الليل الثقيل السواد ويبزغ الصباح ليوافي حبيبته دلال إلى الشاطئ الحالم الهاجع الرحيب.

ويطير بها إلى بعقلين؟..

وأقام ينتظر بزوغ الصباح.

وما إن بدأ الفجر يكحل مقلة الليلة بلونه الوردي، حتى كان رئبال الشهابي ينهض من فراشه، فيجمع ثيابه، ويدفع لصاحب الفندق ما يترتب عليه وعلى جواده، ويسرع بالخروج إلى الشاطئ القريب.

وراح ينتظر قدوم دلال.

إلا أن دلال لم تطل.

وطال انتظاره: ما بالها لا تحضر؟ أتكون نسيت الموعد المضروب؟ أم تراها لا تزال تغط في نومها؟.

من المؤكد أنها ستحضر بعد قليل.

لقد قال لها إنه سينتظرها في الصباح.

والصباح يمتد من الفجر إلى الظهر فمتى، متى ستحضر دلال؟

وبدأت الشمس تسكب نورها الذهبي على الرمال، جاعلة منها صفحة من ذهب لامع أصفر اللون.

وكلما اقتربت الشمس من كبد السماء ابتعد الأمل بحضور دلال عن قلب رئبال الشهابي.

وبدأت الشمس تنذر باقتراب الظهر، والأمير الشاب ما زال في وقفته الحائرة على الشاطئ الرحيب الفسيح الممتد الرمال الهادئ الأمواج.

وبدأ أمل رئبال يتضاءل. بدأ نور الأمل يخبو في فؤاده.

وبعد أن كان يعلل الأمل بحضور حبيبته بين دقيقة وأخرى بدأ يفكر في سبب تخلفها عن الحضور...

وعندما أشارت الشمس بحلول الظهر قطع رئبال كل أمل.

وأسرع بالعودة إلى الفندق يسأل عن حسيب عبد الله وابنته دلال.

وابتسم صاحب الفندق للأمير الشاب:

ـ حسيب عبد الله وابنته الجميلة غادرا الفندق ليلة أمس يا مولانا الأمير.

فدهش رئبال: ماذا تقول؟

قال: أقول الحق.. في ساعة متأخرة من الليل ترك حسيب عبد الله وابنته دلال فندقنا. وكان الوالد في حال غضب، وكانت الابنة في حال حزن. لم تكن راضية، كما بدا لي، عن سفر والدها في الليل.

ـ ولكن، أتعرف إلى أين سافرا؟!

فقلب صاحب الفندق شفتيه.

وتمتم: لست أدري يا مولاي، لست أدري!

ـ ولكن هل ثمة من يعرف ذلك من الخدم؟

قال: سأدعوهم الآن وأسألهم.

ودعا الخدم إليه: هل ثمة من يعرف مقر حسيب عبد الله وابنته؟ إلى أين سافرا ليلة أمس؟...

فوثب أحد الخدم يقول: حسيب عبد الله ترك جونية ليلة أمس إلى جبيل. لقد سافر إلى جبيل.

ووثب الأمير رئبال إلى الخادم يتحفه بقطعة نقدية.

ثم يسرع إلى جواده يمتطيه، ويطلق له العنان إلى جبيل.

2

مدينة جبيل تغرق في حضن السكينة والهدوء. كل من وما فيها على سكينة وطمأنينة وسلام.

وأمواج المتوسط تغسل أقدامها براحة وغبطة وهناء.

وجبيل لا تختلف عن جونية بشيء.

المدينتان مقرّ للتجارة اللبنانية.

ومرفأ جونية كمرفأ جبيل يومذاك.

منه تبحر المراكب إلى قبرص وإلى تركيا وإلى مصر.

وفي المدينتين يلتقي التجار.

وتتكدس البضاعة والمواشي والسلع.

والمدينتان على ازدهار وانتعاش.

وأكثر أبناء القرى اللبنانية كانوا ينزحون إلى جونية أو إلى جبيل لشراء ما يحتاجون إليه، أو لبيع ما يفيض عن حاجاتهم من المنتجات الصناعية أو الزراعية.

ووصل الأمير رئبال الشهابي إلى جبيل مع تأهب الشمس للانحدار وراء الأفق البعيد.

ووصل إلى المرفأ، وراح يطوف بين التجار والبائعين والمارة، وهو يفتش عن ضائع حبيب.

عن دلال عبد الله.

وبدأت الشمس تتدحرج وراء البحار.

وبدأ أمل الأمير يخبو في قلبه.

الظلام سيغمر جبيل بعد قليل.

وسيحجب عن عين رئبال المارة فيصعب مرآهم.

وقد تمر دلال قربه ولا يراها.

وفيما الأمير يسير أمام جواده على تفكير مقلق ممض هادم لاح له شبحان يقتربان منه على مهل.

وأخذ قلبه ينبض بسرعة: لماذا؟ لماذا تسرع النبضات يا قلب؟

وكأن قلب رئبال شاهد القادمين إليه قبل أن تشاهدهما عيناه.

لقد علم قلبه أن الحبيب قادم إليه:

هذه هي...

هذه هي دلال.

دلال ووالدها حسيب عبد الله.

وأسرع الأمير إلى الاختفاء وراء حائط قريب.

لن يدع عين حسيب عبد الله تقع عليه.

لا. سيختبئ، ثم يقتفي آثاراهما ليعلم أين ستحطّ منهما الرحال.

ومرّ حسيب عبد الله وابنته قرب رئبال وما شاهداه.

وسارا على مهل..

وسار الأمير وراءهما، وطال مسيرهما.

وكادا يصلان إلى ضواحي المدينة ورئبال في أثرهما.

وهناك قرب الضواحي دخل حسيب عبد الله وابنته إلى دار كبيرة عالية شاهقة.

وأدرك رئبال أن تلك الدار فندق.

إنها شبيهة بفندق مدينة جونية.

الخان في الطابق الأول والفندق في الطابق الثاني.

ورأى رئبال أن يتريث في الدخول إلى الفندق.

رئبال لن يدخل إلى الفندق إلاّ وقد نام حسيب عبد الله.

ولن يخرج منه إلا ويده بيد حبيبته دلال.

وكمن أمام الفندق.

ولم يطل انتظاره، فقد خرج حسيب عبد الله من الفندق بعد قليل.

وقفل عائداً أدراجه.

ورأى الأمير الفرصة سانحة للدخول.

فوثب إلى الفندق على ثورة قلب مضطرمة النيران.

وسأل أحد الخدم: قل لي، أين هو السيد حسيب عبد الله؟

قال الخادم: السيد حسيب خرج منذ قليل يا سيدي.

ـ متى يعود؟

ـ لست أدري.

ـ وابنته أتكون هنا؟

ـ ابنته هنا. إنها في غرفتها.

ـ أأستطيع الدخول إليها؟

ـ مهلاً ريثما استأذن لك.. من تكون؟

قال الأمير: قل لها رئبال يريد أن يتكلم إليها.

ودخل الخادم إلى الغرفة..

وبعد لحظات خرج الخادم، وخرجت معه دلال وأسرعت إلى الأمير والدموع تترقرق في عينيها: رئبال!..

ـ دلال!..

ـ ما أتى بك إلى هنا؟ كيف وصلت؟ كيف علمت أنني هنا؟ من قال لك؟ من أخبرك؟.

فأمسك يدها: دلال!.. الحب يذلّل الصعاب ويحطّم الأخطار ويهيب بالمحبين العاشقين إلى ركوب الأهوال وامتطاء المخاطر. لا النار ولا الماء ولا الهواء تقعد بالمحبين عن الوصول إلى أحبابهم، ولا المسافات الشاسعة تبعد العاشقين يا دلال. كلما ابتعد الحبيب عن حبيبه شعر بالحب يجذبه إليه، وكلما غاب العاشق عن المعشوق أحس بروحه تهيم حوله وبأنفاسه العطرة تهب على وجهه وبكلماته العذبة الشجية تتكسر في أذنيه. ليس ثمة قوة في الحياة أقوى من الحب يا دلال. كل شيء يهون في سبيل الأحباء وكل الصعاب تصغر حيال العاشقين المحبين المغرمين. دلال!.. لا تسألي رئبالاً كيف وصل إلى هنا، ولا من أعلمه بوجودك هنا؟ لا تسأليه شيئاً. يكفي أن تعلمي أن رئبالاً يحبك، يحبك حباً عظيماً هائلاً جباراً، حباً عاصفاً كالعاصفة في أعالي الجبال، وكالموجة الصاخبة المتمردة في متن البحار، يحبك حباً كالغمامة السابحة في الفضاء تسبح وتسبح ولا تعلم إلى أين تسير ولا إلى أين تؤول ولا إلى أين ستصل في اندفاعها. ليس نور الشمس بأشد من حب رئبال لك يا دلال، ولا ثلوج لبنان بأشد نصاعة من نصاعته، ولا شموخ الجبال بأروع من شموخه. دلال!.. دلال!.. يا حبيبة قلبي يا دلال..

وانتشت دلال بكلمات رئبال المتساقطة في أذنيها كتساقط الندى على الأزهار.

وتمتمت: رئبال! اقرأ في قلبك اختلاجات قلبي، واسمع في أذنيك ما يتكسر من الأنغام في أذني، وانظر في عينيك ما انظر في عيني. أنت أنا يا رئبال. وكأنني أعرفك منذ أمد بعيد، بعيد جداً. متى؟ لست أدري. ما تشعر به من حنين تشعر به دلال. وما تحسّه من هوى وغرام أحسه أنا. أحبك، أحبك أحبك يا رئبال.

قال: تعالي إذاً، تعالي نهرب من هنا. أنا ما جئت إلى جبيل إلّا لأعود بك إلى بعقلين. تعالي تعالي.

قالت بخوف: ولكن والدي... لقد أدرك والدي كل شيء. علم أنك تريد اختطافي. من أجل هذا نزح عن ميروبا ومن أجل هذا هرب من جونية إلى جبيل. إنني أشفق على هذا الوالد البائس المسكين. ماذا ستكون حاله وقد نأت ابنته عنه يا رئبال؟..

قال: عندما نتزوج، سأدعوه إلى العيش معنا يا دلال. لن أتخلى عنه. لا تخافي يا حبيبتي لا تخافي.

وأمسك يدها، وأسرع بالخروج بها من الفندق.

ووثب إلى ظهر الجواد.

ثم رفعها إليه وأجلسها وراءه.

وراح ينهب الأرض نهباً في طريقه إلى بعقلين.

وكان الليل قاتم السواد.

ونسيم الليل العليل يداعب شعر دلال ويمسح وجه رئبال بعطره.

وأخذ الأمير رئبال يحث الجواد على الإسراع.

إنه ليخشى أن يلحق به حسيب عبد الله ويستعيد ابنته.

وانطلق الجواد بالأمير وبحبيبته دلال طاوياً السهول والأودية والجبال.

وعندما بدأت أنوار الصباح تنشر أجنحتها على لبنان كان رئبال ودلال قد اقتربا من بيروت.

فترجلا عن الجواد قرب «دكان» صغير وتناولا طعام الصباح.

وكان التعب والنعاس قد أنهكاهما.

فاستراحا قليلاً واستأنفا المسير.

وكانت دلال حزينة الفؤاد.

فهي تحب والدها.

وتفكر فيه: ترى ماذا حل به وقد اكتشف أمر فرارها منه كاللصوص المجرمين؟

وماذا حل بحسيب عبد الله؟

ما إن عاد إلى الفندق حتى فوجىء باختفاء ابنته.

وذعر... وسأل صاحب الفندق عنها: دلال!. ابنتي دلال أين هي؟

وأجاب صاحب الفندق: جاءها رجل فخرجت معه ولم ترجع بعد.

وأدرك حسيب عبد الله كل شيء: الأمير رئبال الشهابي لحق بهما واختطف دلال.

يا لحزن حسيب عبد الله العميق.

ويا لدموعه الغزيرة المدرار.

وشعر حسيب عبد الله بالوهن، وحاول المسير فما استطاع، ووقع على الأرض وأجهش بالبكاء كالأطفال.

إنه يحب ابنته دلال حباً أبوياً خالداً، ولا يطيق بعاداً عنها.

الدنيا بأسرها لا تساوي عنده نظرة من دلال.

لقد وقف عليها حياته وقلبه وماله.

كل آماله اندثرت، وكل أحلامه تبخرت.

وكل رغبة له في الحياة انقضت في فرار دلال.

ليته مات. ليت التراب غيبه قبل أن يعلم بهرب ابنته الوحيدة دلال!.

* * *

وصل الأمير رئبال الشهابي إلى بعقلين منهوك القوى وقد مضّه التعب وأرهقه السفر الطويل.

أما دلال فكان العياء الشديد ظاهراً في وجهها وفي عينيها السوداوين الجميلتين.

وترجل الأمير عن الجواد أمام قصر أبيه الأمير سالم.

وساعد حبيبته دلال على الترجل.

وأمسك بيدها يدخلها إلى القصر.

وأعجبت دلال عبد الله بهذا القصر المترامي الأطراف المحاط بالحديقة الجميلة الغناء والمزدان بالرياش والسجّاد والتحف النادرة المثال.

وأسرع رئبال إلى أمه يقبّل يدها.

ووقفت دلال في القاعة الفسيحة الأرجاء كالفقير في محفل الأغنياء.

ونظرت أم رئبال إليها.

ثم نظرت إلى ابنها تسأله: من تكون الفتاة يا رئبال؟

وقال بتلعثم: أمي!.. هذه الفتاة أحببتها وقد اخترتها لتكون شريكة حياتي. جئت بها من ميروبا إلى هنا لتباركينا وتساعديني أمام والدي على قبول زواجي منها.

فتمتمت أم رئبال: ولكن من هي؟ عساها تكون ابنة أحد المشايخ الخازنيين أو الحبيشيين يا ابني؟

قال: لا، لا هي ابنة أمير ولا هي ابنة شيخ. أقول لك الحق إنها ابنة طحّان.

فذعرت أم رئبال: ماذا تقول يا رئبال يا ابني؟ ماذا تقول؟.. أبناء الأمراء لم يتزوجوا يوماً من سوى بنات الأمراء، وعندما يتواضعون يتزوجون من أبناء المشايخ. هذا لن يكون يا رئبال. زواجك من هذه الفتاة مستحيل يا ابني.

إلا أن رئبالاً لم يأبه لما تقوله أمه.

بل وقف يدعو دلال إلى الاقتراب منها: تعالي يا دلال.. تعالي سلمي على أمي.

واقتربت دلال بخطوات متئدة، والخجل يرتسم في حمرة وجنتيها وانخفاض جفنيها.

وما إن اقتربت من أم رئبال ووقع نظر الأميرة عليها حتى ارتعدت...

ووقفت أم رئبال على دهشة وحيرة ووجوم.

وتمتمت: من؟ هند؟ هند؟ أنت هند؟

وأسرعت أم رئبال إلى دعوة الأمير سالم الشهابي: تعال يا أبا رئبال تعال انظر!

وجاء الأمير، وشاهد الفتاة فارتعد.

ماذا يرى؟ هذه الفتاة شبيهة كل الشبه بامرأة أخيه سميح. إن وجه الأميرة هند التي ماتت مسمومة بيد الخادم المجرم اللعين سرحال الدوار ليرتسم على وجه هذه الفتاة..

فكأنها هي نفسها.

وسأل الأمير سالم ابنه رئبال: من تكون هذه الفتاة يا ابني؟

وتمتم رئبال: إنها دلال، يا والدي، دلال ابنة الطحان حسيب عبد الله. رأيتها في ميروبا فأعجبت بها، وأحببتها وحاولت اختطافها إلا أن والدها هرب بها إلى جونية، ولحقت بهما، فهرب بها إلى جبيل، وأدركتهما في جبيل فاختطفتها وجئت بها إلى بعقلين. إنني لأرجو منك يا والدي أن توافق على زواجنا. أنا أحبها، أحبها بكل ما يستطيع قلب أن يحب ويهوى على هذه الأرض. لا أستطيع البعاد عنها يا والدي لا أستطيع.

وصمت الأمير سالم الشهابي، وبعد صمت طويل تمتم: أنا لا أمانع في أن أزفها إليك يا رئبال، ولكنني أريد أن أرى والدها. أريد أن أعلم ابنة من هي.

والتفت الأمير إلى دلال يقول: من أي بلد أنت يا ابنتي؟

وخفضت دلال نظرها إلى الأرض وتمتمت: أنا من ميروبا، يا مولاي الأمير.

واشتدت دهشة الأمير سالم.

وظهر الذعر في زوجته الأميرة وقد سمعا صوت الفتاة. فالصوت أيضاً صوت المرحومة هند.

الوجه والصوت والقامة والشعر والنظرات.

كل ما في الفتاة يبعث ذكرى هند إلى مخيلتيهما.

وأخذت أم رئبال تحدق بالفتاة.

وشاهدت عقداً من الذهب يطوق جيدها وقد انتهى عند صدرها بجوهرة حمراء.

وأخذت الأميرة ترتجف.

وأطبقت على أذن زوجها تتمتم: سالم. انظر.. انظر الجوهرة الحمراء. هذه الجوهرة التي أهديتها لطفلة أخيك.. لناهدة يوم مولدها منذ عشرين سنة.

وحدق الأمير سالم بالجوهرة الحمراء.

وجحظت عيناه، وقد تأكد من أن الفتاة ليست ابنة الطحان.

بل هي نفسها ابنة أخيه.

ابنة الأمير سميح الشهابي التي اختطفها الخادم سرحال الدوار بعد مصرع أمها وأبيها بالسم الذي دسه لهما في الطعام.

وشاهد رئبال والده وأمه في ارتباكهما وهمسهما.

فسألهما: ماذا؟.. ما بكما؟

وتقدم الأمير سالم الشهابي من دلال يسألها: ابنة من أنت يا ابنتي؟

قالت بانكسار: أنا ابنة حسيب عبد الله.

ـ وأمك من هي؟

قالت: لست أعلم. أمي ماتت يوم ولادتي، هكذا قال أبي.

وعاد سالم الشهابي يهمس في أذن زوجته الأميرة: هذه هي، هذه هي ناهدة يا أم رئبال.

وأسرعت أم رئبال إلى غرفتها وعادت بعد لحظات حاملة صورة صغيرة صفراء.

وبدأ الارتباك والدهشة تظهر على الوجهين، وجه الشاب ووجه الفتاة.

وتمتم رئبال: هذه دلال.. إنها لشديدة الشبه بدلال.

ودهشت دلال ونظرها يقع على صورة المرأة.

وتمتمت: رباه.. إن هذه المرأة شديدة الشبه بي. من هي؟ من هي؟

وقالت أم رئبال: هذه أمك يا دلال.

وصعقت دلال: أمي؟..

وقبل أن تجيب أم رئبال أسرع الأمير سالم إليها هامساً في أذنها: لا يا أم رئبال ماذا تفعلين، لا تخبري ناهدة كل شيء لئلا تقضي المفاجأة عليها. مهلاً، مهلاً يا أم رئبال.

وحاولت دلال معرفة الحقيقة إلا أن الأمير سالم قال لها:

هذه أمك نعم، وقد ماتت يوم ولادتك كما قال أبوك يا دلال. أدخلي الآن إلي غرفتك واستريحي وغداً نخبرك كل شيء.

وقاد رئبال حبيبته دلال إلى غرفة فاخرة الرياش فاستلقت الفتاة في فراش وثير واستسلمت للرقاد.

أما رئبال فقد عاد إلى بسمة أمل.

إنه ليعرف قصة عمه وامرأة عمه.

كان أبوه قد أخبره كل شيء منذ أمد بعيد.

وكان الأمير الشاب يتمتم في سره: أترى تكون دلال ابنة عمي؟

3

راح الأمير سالم الشهابي يستقصي أخبار حسيب عبد الله.

حسيب عبد الله ليس حسيب عبد الله.

إنه سرحال الدوار الخادم المجرم الذي فتك بأخيه الأمير سميح الشهابي وبزوجته الحسناء الأميرة هند.

ودلال ابنته ليست دلال ابنته.

إنها ناهدة، الأميرة ناهدة التي اختطفها المجرم سرحال من قصر والدها منذ عشرين سنة.

إذن سرحال لم ينتحر.

والأمير فخر الدين المعني خدع الأمراء الشهابيين يوم أذاع في لبنان نبأ انتحاره في البحر في بيروت.

ابنتهم عادت إليهم.

ولكن يجب الانتقام من سرحال الدوار.

الدم البريء ما زال يصرخ إلى السماء طالباً الانتقام.

الأمير سالم الشهابي سينتقم لدم أخيه ولدم زوجة أخيه من قاتلهما.

وأخذ الأمير سالم يبحث عن حسيب عبد الله.

أو بالأحرى عن سرحال الدوار.

وسأل عنه في جبيل.

فقيل له: لقد غادر جبيل إلى جهة مجهولة.

وحسيب عبد الله كان قد غادر جبيل باحثاً عن دلال.

إنه ليعجز عن العيش بعيداً عنها.

إما عودة دلال إليه وإما الانتحار.

وكان سالم الشهابي يبحث عن حسيب عبد الله.

أو بالأحرى عن سرحال الدوار.

في حين كان سرحال الدوار يبحث عن ابنته.. عن دلال.

وعلم سرحال الدوار أن الأمير رئبال الشهابي حمل دلال إلى بعقلين.

ووَدَّ لو يستطيع الوثوب إلى بعقلين واستعادة دلال.

ولكن أنى له العودة إلى بعقلين.

إلى بلدته التي هجرها منذ عشرين سنة، والأمير فخر الدين له بالمرصاد.

وَهَبْ أنه نجا من الأمير فخر الدين، فهو لن ينجو من الأمراء الشهابيين.

وهم الطامعون في الأخذ بالثأر لدم ابنهم سميح الشهابي وزوجته، من قاتلهما . .

والكل في بعقلين وفي جميع القرى المحيطة ببعقلين يعلمون أن سرحال الدوار انتحر .

فليظلوا على اعتقادهم .

لن يعود إلى بعقلين، وفي بعقلين ينتظره العقاب الشديد .

ولكن دلال في بعقلين وهو لا يستطيع أن يبتعد عن دلال .

سيقتحم بعقلين ويستعيد دلال .

وليكن ما يكون .

إما أن تعود دلال إليه .

وإما أن يستقرّ في الضريح ويستريح من هذه الحياة .

وشدّ سرحال الدوار الرحال إلى بعقلين .

ووصل إلى عاصمة فخر الدين عند المغيب .

ووقف في بعقلين يستعيد الذكريات الآفلة وراء عشرين سنة .

هنا هنا ارتكب جريمته .

ها هو قصر الأمير سميح الشهابي .

هذا القصر كان للأمير ناصر المعني والد الأميرة هند .

ثم انتقل إلى الأمير سميح زوج هند .

هنا في هذا القصر ارتكب سرحال الدوار جريمته النكراء منذ عشرين سنة .

ها هي الصور تتراءى لبصيرته من خلال السنين العشرين .

كأنها بالأمس القريب القريب .

وشخص إلى قصر الأمير سالم الشهابي، وقد تسلح بخنجر مصقول.

سيقتحم القصر ويستعيد دلال.

والويل كل الويل لمن يعترض سبيله.

وكان الليل قد قارب الانتصاف عندما وصل سرحال الدوار إلى قصر الأمير سالم الشهابي .

ووثب إلى حديقة القصر، بكل حذر، ويده قابضة على الخنجر .

وتسلل من باب الخدم، وسار في الرواق الطويل باحثاً عن أثر لدلال .

وكانت أنوار مصابيح الزيت تلقي أنوارها الخافتة الواهية الحمراء على غرف القصر .

فراح سرحال الدوار يتطلع من النوافذ ومن ثقوب الأبواب إلى داخل الغرف باحثاً عن دلال .

وكان يحبس أنفاسه، لئلا تفضح أمرَه الأنفاسُ المتواثبة في صدره.

ووصل إلى الغرفة الراقدة فيها دلال.

وشاهدها من النافذة، تنام ملء جفنيها في سريرها الوثير.

وكان الكل نياماً، فلا همسة ولا حركة ولا صوت.

وراح سرحال الدوار يفتش عن مدخل للغرفة.

ولم يكن ثمة من منفذ إلى الغرفة سوى الباب.

ودفع سرحال الدوار الباب فانفتح فوراً.

لم يكن مقفلاً من الداخل.

ووثب إلى دلال الهاجعة على براءة وطهارة وعفاف يكمّ فمها ويهمس في أذنها: دلال. انهضي يا ابنتي انهضي.

وفتحت دلال عينيها على ذعر.

وأخذت تتمتم: أبي، أبي رحماك!

إلا أن هذه الكلمات القليلة خرجت من فمها المكموم بيد والدها محطمة غير مفهومة.

وانتضى سرحال الدوار خنجره المصقول.

فلمع في الظلام الدامس.

وهمس في أذنها: إذا تلفظت بحرف أخمدت أنفاسك. انهضي، تعالي معي.

وأمسك يدها يجرها من السرير، وسار بها على مهل.

من الغرفة إلى الرواق إلى صحن الدار، إلى الحديقة.

وخيّل إليه أنه نجا..

فهو قد دخل إلى الحديقة دون أن يعترض سبيله أحد.

وهكذا سيخرج...

إلا أنه فوجئ بكلب كبير يثب إليه في الحديقة نابحاً.

ويمعن أظافره وأنيابه في جسده.

وأسرع باستلال الخنجر المصقول.

وراح يطعن الكلب به.

ودارت معركة طاحنة بين سرحال والكلب.

واستفاق كل من في القصر.

وأسرع الأمير سالم الشهابي، وابنه رئبال إلى الحديقة يستطلعان الخبر مع الخدم والحراس.

ولم ينسَ رئبال أن يحمل البندقية معه.

وشاهد سالم الشهابي المعركة بين الكلب وسرحال الدوار.

وعرفه... هذا هو قاتل أخيه..

وكان سرحال قد تمكن من صرع الكلب.

وأمسك يد دلال محاولاً الخروج بها من القصر.

إلا أن رئبالاً وثب إليه محاولاً استعادة دلال.

فما كان من سرحال إلا أنه انتضى خنجره وهجم على رئبال محاولاً ذبحه.

وإذا برئبال يصوب البندقية إلى صدر سرحال ويطلق النار.

ووقع سرحال الدوار يتخبط بدمه..

لقد أصاب الطلق منه مقتلاً.

وأطبق الجميع عليه.

وكان يحتضر.

ونظر إلى دلال مشيراً إليها أن تقترب منه.

واقتربت دلال.

فأمسك بيدها يرفعها إلى شفتيه.

ويتمتم: دلال.. أنت لست ابنتي.. أنت ناهدة ابنة الأمير سميح الشهابي.. أنا سرحال الدوار قاتل أمك وأبيك.. لقد انتقم الله مني أخيراً. يا لانتقام الله العادل الكريم! سامحيني يا ناهدة يا ابنتي.. واسمحي لي أن أناديك بكلمة ابنتي قبل أن أموت.. ناهدة.. دلال.. ابنتي.. ابنتي.

وألوى عنقه.

وأفلتت يده يد ناهدة ولفظ أنفاسه..

وإذا بالأميرة ناهدة تسكب دمعتين على سرحال الدوار.

ووثب الأمير سالم الشهابي، عمها، إليها: ناهدة!.. أتبكين. أتبكين قاتل والديك؟.

فتمتمت: أجل أبكيه. يكفي أنه كان يناديني «يا ابنتي» طيلة عشرين سنة.

وفي اليوم التالي هللت بعقلين وازدهرت وزهت بالزهور وبالرياحين والعطور.

واحتفلت بالعرس البهيج..

الأمير رئبال الشهابي تزوج من ابنة عمه ناهدة.

بالفرحة العروسين السعيدين الهائمين الناعمين بالأحلام الهانئة الباسمة الوارفة الظلال.

تمت

الانتظار الطويل

الفصل الأول

تعالت الأناشيد القروية على نغمات الناي والدف ومزمار القصب في دار سعيد الجابي، القائمة في حنايا إحدى القرى اللبنانية الهادئة.

وسعيد الجابي من اللبنانيين الأقحاح، المرتدين الزي اللبناني، والناطقين باللهجة اللبنانية الصرف،

والسائرين في سبيل العوائد اللبنانية جمعاء.

فهو يحب لبنان،

ويهيم بكل ما يحفل به هذا الطود الأشم من عوائد وعقائد وشرائع.

ولذلك فقد أبى سعيد الجابي أن يسير في طريق التفرنج، هذا الطريق الذي عبّده الفرنج، فأسرع فيه الخطى أكثرُ اللبنانيين.

وسعيد الجابي يأبى على أسرته أن تتماشى والزيّ العصري المفروض.

فهو يرتدي الشروال وعلى ابنه أن يرتدي الشروال.

وامرأته ترفل بالأزياء اللبنانية، وعلى ابنته ناهدة أن ترفل بتلك الأزياء.

أما المساحيق والعطور فلا حاجة لناهدة بها.

يكفيها ما وهبها الله من جمال طبيعي ومن شذا طهور مقدس.

وفي مطلع كل شهر يدعو سعيد الجابي الأصدقاء والأصحاب إلى إحياء حفلة غنائية ساهرة راقصة في داره، ويحرص سعيد على أن تحفل تلك الليلة بما هو وطني، من المأكول إلى الزي إلى الأغاني.

وتدور أشكال الطعام اللبنانية.

وتحتل القنابيز والشراويل والمناديل المكان الأول،

وتتعالى أنغام الزجل اللبناني، من معنًى ومواليا وقصيد وقرادي وميجانا وعتابا.

وسعيد الجابي يجيد نظم الزجل اللبناني، هذا الضرب من الشعر الذي أوجده اللبنانيون، وسموا به إلى الأعالي، في دقة الحبك، وفي سهولة المعاني وانتقاء الألفاظ.

وما إن يكتمل عقد المدعوين في دار سعيد الجابي حتى يتصدر الزجالون المكان،

وينقرون الدف ويبدأون الإنشاد، مرسلين الطرائف والبدائع والروائع.

وتنتهي السهرة بين الدبكة والزجل والعزف والخمر.

وفي تلك الليلة ـ الليلة الساهرة ـ تكاثر المدعوون في دار سعيد الجابي.

وجلسوا حول رب الدار، يرددون ما يقوله الزجالون، على نغمات الدف وأنات مزمار القصب.

وسعيد الجابي من الزجالين المشهورين في تلك القرية.

وهو صاحب قصائد زجلية رائعة، أنشدها في مناسبات عديدة،

فقد أنشد قصيدة أمام سيادة المطران وحظي ببركة سيادته،

وأنشد قصيدة رائعة بمناسبة ترقية الخوري حنا فلاقت الاستحسان التام،

ونظم قصيدة عصماء يرثي بها الشيخ ضاهر الذي مات منذ شهور، فكان لقصيدته الوقع الحسن لدى أهل القرية أجمعين.

وهكذا فسعيد الجابي لا يترك مناسبة إلا يكون له فيها الرائع من الشعر الزجلي المنطوي على سذاجة فلسفية، أو بالأحرى المنطوي على فلسفة ساذجة فطرية.

ولذلك فقد احتل سعيد الجابي المكان الأول بين شعراء الزجل في القرية.

فأقام الجميع على احترامه الاحترام الكامل.

واتفقوا على تسليمه الزعامة الزجلية في القرية،

فهو صاحب الحق المطلق في إطلاق الأسماء والألقاب على الشعراء الناشئين.

فهذا الشاعر الناشئ يلقب: «بزغلول الضيعة».

وذلك الفتى سماه «الحسون».

وذاك الزجال، أطلق عليه سعيد اسم «القوال».

أما ناصر الشهال فقد وهبه سعيد الجابي اسم «الكروان».

ولم يجد سعيد بهذا الاسم على ناصر إلا بعد أن برهن ناصر الشهال على مقدرة فائقة في مضمار الزجل.

وناصر الشهال فتى طليق المحيا جميل الوجه، دائم الابتسامة.

وهو يفتخر ويعتد بالاسم الجميل الذي وهبه إياه أستاذه سعيد.

ويعلن أمام أترابه أن سعيداً صاحب الفضل الأول عليه: «لولا سعيد الجابي لما نظمت بيتاً واحداً...» هذا ما يقرُّ به ناصر كل الإقرار.

وسعيد الجابي يحب ناصراً ويحنو عليه كما يحنو على ولده.

لا سيما وناصر لا يزيد في عمره عن عمر ابن سعيد.

وتلك الليلة، جلس ناصر الشهال قرب سعيد الجابي يناقشه، ويرد عليه وينازله في الميدان الزجلي.

وقد أجاد ناصر الإجادة التامة،

مما أهاب بالجميع إلى التصفيق لكل كلمة ينطق بها ناصر.

وتطلعت العيون إلى هذا التلميذ الذي يكاد يتفوق على أستاذه،

وتمتمت الشفاه: «يا للكروان.. سلمت شفتاك يا كروان».

ودارت الكؤوس، وامتدت الأيدي إلى الصحون تغرف منها المآكل اللبنانية، وتناولها «الكروان».

فالكروان لا تمتد منه اليد إلى المآكل. إنه يغيب في عالم النظم، النظم الارتجالي الرائع.

وأخذت العيون، عيون الصبايا الناعسات، تخالس «الكروان» النظرات،

وكلها نظرات تنم عن إعجاب وتقدير وهيام: هذا فتى جميل، ذكي خفيف الروح، مشهور الاسم...

وهذه المزايا تجذب إليها أبداً ابنة حواء، الناظرة دائماً إلى القشور دون اللباب.

إلا أن ناصراً، لم يأبه للعيون الساحرة المتطلعة إليه.

لا، كل تلك العيون وكل تلك النظرات لا تساوي لديه، طرفة عين من تلك المتربعة من قلبه في الصميم.

ومن هي الرائعة في فؤاد «الكروان»؟

من هي تلك التي استأثرت بفؤاد ناصر الشهال المتربع على قمة من الشهرة والجمال، الحلو الحديث، الشجي الصوت؟ إنها هي الجالسة تجاه ناصر، تخالسه النظرات على خجل وحياء فتنظر إليه اختلاساً ثم تحول نظرها عنه إلى الحضيض لتتورد منها الوجنتان، وتغيب في تفكير عميق.

هذه هي ناهدة، ناهدة ابنة سعيد الجابي، أستاذ الكروان.

والكروان يهيم بناهدة منذ أمد بعيد، وناهدة تهيم بالكروان.

إلا أن، لا ذاك باح بحبه ولا تلك،

فاكتفى ناصر الشهال بالنظرات والأحاديث،

ولكتفت ناهدة بالأحاديث والنظرات.

إلا أن ناصراً عزم تلك الليلة على مصارحة ناهدة بحبه الدفين.

سيختلي بها ويبثها حبه الجموح.

ولها بعدئذ أن تقصيه عنها أو أن تجيبه إلى حبه.

ولكن كيف سيجتمع ناصر الشهال بناهدة الجابي؟ وأين؟ ومتى؟

هذا ما كان يجول في خاطر الكروان: لا بد من الاجتماع بناهدة هذه الليلة، لن يخرج من دار أستاذه إلا وقد علم مصير قلبه الولوع.

وعمد إلى الزجل، محاولاً فيه إفهام ناهدة أنه سيقيم على انتظارها خارج الدار، فأنشد:

«عاشق يرقب نجم سهيل   يتنقل من ميل لميل
قدام منزل محبوبو   واقف ناطر طول الليل»

فتعالت الآهات، وردد الجميع الشطر الأخير بحماس مرات عديدة.

ونظر ناصر إلى ناهدة فإذا بها تنظر إليه نظرات بعيدة القرار،

وما إن أعاد إنشاد البيت ناظراً إليها، حتى أشارت برأسها أن «فهمت ما تعني، سأوافيك..».

وما إن انتهت السهرة، وتفرق الساهرون، حتى كان ناصر الشهال يقف بحذر واضطراب وسط غابة من الصنوبر، بالقرب من دار أستاذه سعيد الجابي.

إنه يقف على انتظار تلك التي سلبت جنانه، على انتظار تلك التي احتلت تفكيره وأحلامه، على انتظار ناهدة الجابي.

وطال انتظاره، دون أن تطل ناهدة: ترى ماذا حدث؟.. هل تحضر؟.. أجل. لا...

وبين أجل ولا، بين اليأس والأمل وقف ناصر الشهال يرقب حضور ناهدة، وهو على قلق وخشية واضطراب.

وأخيراً، وقد سئم الانتظار، بعد أن أشرف الليل على الزوال، مشى ناصر.

إلى أين؟

إنه يرغب في العودة إلى داره. ناهدة لن تحضر، عليه أن يعود إلى داره حاملاً بين يديه قلبه الصريع الملتاع.

وما كاد يخطو خطوة واحدة حتى لاحت لعينيه ناهدة: أجل إنها هي، هذه ناهدة ترفل بمعطفها الجميل، وتسير على رشاقة ودلال.

وأسرع إليها، وقد عيل صبره. لن ينتظر دقيقة واحدة.

وإذا بيده الحارة تضغط يدها الباردة.

ولم يستطع الحبيبان كلاماً، فلا ناصر تكلم ولا ناهدة.

والتقت الأعين الملتهبة بنظرة عميقة سحيقة تخفي وراءها أسراراً، وتنم عن حب طهور قوي، وتعبّر عن حديث لا قرار له.

وتفاهما من دون أن يتكلما، وشعرا أنهما على وثاق متين، وأنهما على حب صارع جبار.

وشاء الكروان الكلام فأخفق.

وأرادت ناهدة التلفظ بكلمة واحدة فوقفت منها الكلمة على الشفتين.

وكان كلامهما النظرات التائهة الحيرى، وحديثهما الهمسات المتجاوبة بين الحبيبين، تحت أغصان الصنوبر الوارفة في ذلك الليل البهيم.

ولم ينسلخا عن بعضهما، إلاّ وخيوط الفجر تكحّل مقلة الليل،

وبعد أن شعرا بأن الفجر سيطل على لبنان، التفت الكروان ليلقي مع أنشودة الفجر أنشودة الهوى في أذني حبيبته.

وكانت الأنشودة كلمة واحدة، هي لدى ناهدة أروع وأنبل وأشجن من قصيدة عامرة متينة القوافي. كلمة واحدة أطلقتها شفتا ناصر الشهال في أذني ناهدة الجابي، فاختلجت لها روح ناهدة، وغابت على نغماتها في عالم آخر: «أحبك».

* * *

أقام ناصر الشهال عل حب ناهدة الجابي.

ونعم بحبها، ونعمت بحبه.

وما درى بحبهما أحد.

وشاء ناصر أن يطلب يد ناهدة من أستاذه والدها.

إلا أن ناهدة وقفت دون مبتغاه. قالت: مهلاً يا ناصر مهلاً

دعنا ننعم بحبنا على مهل، لماذا الإسراع في الزواج؟ لماذا؟ ألا يروقك أن نظل حبيبين نرشف من معين الحب الزلال؟

قال ناصر: وهل يضيرنا أن نرشف الحب، ونحن على وثاق الزواج المقدس؟ هل يتوارى حبنا ويذوب هوانا بعد أن تربطنا الشريعة المقدسة بسلاسلها المتينة؟

قالت ناهدة: لقد قيل يا ناصر إن الزواج يذهب بالحب، وهذا ما يخيفني يا حبيبي. إني أخاف أن يذهب الزواج بحبنا، أخاف أن تدفعني عنك بعد أن أصبح زوجة لك، أخاف أن ينضب فؤادك من الهوى، ويجف قلبك من الهيام. إني لأخاف، أخاف، ولا أعلم ما يخيفني يا ناصر!

قال الكروان: هذه هواجس وخرافات يا ناهدة. الزواج المقدس يزيد الحب المقدس، والأسرار السماوية والشرائع الإلهية لم تسنّ إلا لتجعل من الحب الطاهر المقدس، حباً خالداً لا يفنى ولا يزول.. والحب يا ناهدة أشكال وألوان فهو كالأزهار والعطور، يفوح بأنواع الشذا ويلوح بأشكال الألوان. وقد يذبل الحب ولكنه لا يموت، لأن الحب ينبزغ من الروح، والروح خالدة، ولذلك يجب أن يكون الحب خالداً. دعي عنك هذه الأفكار السوداء يا حبيبتي، وتعالي لنحيا حياة زواج مقدس. ناصر الشهال لن يرتوي من معين حبك الطاهر النبيل.

فأطربها بيانه البليغ.

وشاءت أن تستزيد من هذا البيان، شاءت أن تستأثر بقلب حبيبها.

قالت: ألن تخونني يا ناصر في يوم من الأيام؟ فتراجع على غضب، وقال: بماذا تنطقين يا ناهدة؟.. لم أكن لأنتظر منك أن تلقي هذا السؤال؟.. أنت تعلمين مدى حبي إياك وعظيم إخلاصي لك. أنت تعلمين يا ناهدة أن ناصراً يفضل الموت على خيانة حبيبته. لا، وحقك، لن أفكر بخيانتك في يوم من الأيام. وليغيبني القبر، قبل أن أنظر إلى وجه غير وجهك يا ناهدة.

ونظرت ناهدة لتقول: والزجل الذي تنظم يا ناصر لمن يكون؟.. وهذه القصائد الطافحة بالغزل لمن قلتها؟ ولمن تنشدها؟

وهذه هي طريقة ابنة حواء في الحب، إنها تأبى على من تحب أن يلفظ كلمة واحدة إلا لها ومن أجلها.

إنها تود أبداً أن تمتلك حبيبها امتلاكاً مطلقاً، فتمد سلطانها على أعماله وأقواله.

وأحياناً حتى على تفكيره.

فهي تودّ أن تستأثر بمن تهوى، وأن تفرض مشيئتها عليه.

وفي فرض المشيئة لذة عميقة،

كما أن في تنفيذ المشيئة المفروضة من الحبيب، أيضاً لذة عميقة.

والتفت ناصر إلى ابنة سعيد الجابي، التي أحلها من قلبه في الصميم، ليقول أتتألمين يا ناهدة من إنشادي الزجل؟

قالت: إني لأريدك لي وحدي يا ناصر، أريدك حبيباً ودوداً لا يشاطرني إياه أحد، ولا ينتزع من شفتيه أحد حرفاً واحداً سواي.

فأطلق ابتسامة زاهية، وتمتم: وحياتك عندي يا ناهدة لن أنظم الزجل بعد الآن.

وبرَّ بوعده، وحذف اسمه من سجل الزجالين في تلك القرية.

ناصر الشهال لا ينشد الزجل. هو عاشق. ولهان. جفا الزجل ليهيم بصبية حسناء.

استبدل حبيباً بحبيب.

ولكن من هي تلك التي سلخت ناصر الشهال عن سبك القوافي وصياغة النظم؟

هذا ما شاء أتراب الكروان الوقوف عليه.

وحاولوا مراراً عديدة حمل ناصر على الإنشاد فأخفقوا.

ناصر معتصم بالصمت. لا ينظم بيتاً ولا ينشد قصيدة.

ولجأوا إلى أستاذه سعيد الجابي.

قالوا: عليك بناصر. إنه ليضنّ علينا بروائعه، هو يأبى الإنشاد، أنت أستاذه. هل ترضى لتلميذك بأن يعتصم بالصمت، أيسكت الكروان عن الإنشاد؟

قال سعيد الجابي: سأدعو ناصراً لإقامة سهرة في داري، هذه الليلة، وسنحمله على الإنشاد. لا عليكم، دعوا الأمر إليّ وحدي.

وإذا بالسهرة العامرة تعقد في دار سعيد الجابي، وإذ بناصر يتصدر المكان، ودارت الكؤوس، ونقر الدف، وتعالت الآهات، وفاضت القرائح.

ودعا الجميع ناصراً إلى الإنشاد فأبى الإنشاد: «لا. دعوني يا إخواني. لقد أقسمت عهداً بعدم الإنشاد. دعوني أبرّ بقسمي».

قال سعيد الجابي: ولمن أقسمت لمن؟ إني لأحلّك من قسمك. يجب أن تنشد، أن تنظم، أن تنطلق بما حباك الله من موهبة وذكاء.

قال الكروان: أرجوكم، أرجوكم دعوني من الإنشاد. لقد أقسمت ولن أخون قسمي..

قال سعيد: لا شك في أنك عاشق يا ناصر. فهل انتزعتك منا تلك الشقية؟ والله لو عرفتها لقصفت عمرها.

فتعالت القهقهات من الجميع، وصبغ الخجل جبين الكروان

بلونه الأحمر، وارتعشت ناهدة: ماذا يقول والدها فيها لو درى أن ناصراً يقيم على حبها؟

ونظرت إلى حبيبها خلسة.

وأشارت إليه برأسها أن ينزل على طلب أترابه، إلا أن ناصراً أبى أن يحنث بيمينه.

لقد أقسم بحياة ناهدة، وحياة ناهدة عزيزة على قلبه.

لن يرجع عن قسمه، لن ينظم الزجل، وليقل أترابه ما أرادوا.

وعبثاً حاول أصدقاء الكروان، حمله على الإنشاده، فناصر برٌّ بقسمه.

وأقام على الاعتصام بالصمت، كما أقام على الوفاء في الحب.

وتمكن الحب من القلبين، وشعرت ناهدة بأنها جزء من ناصر.

كما شعر ناصر أيضاً بأنه جزء من ناهدة.

وتعرّفت الغابة ـ غابة الصنوبر ـ القريبة من دار سعيد الجابي إلى الحبيبين، وشاهدت تلك الأغصان، أغصان الصنوبر الوارفة لقاء «الكروان الصامت» وحبيبته ناهدة الجابي.

الفصل الثاني

عاد سالم العلام، من الديار الأميركية إلى قريته الوادعة بعد طويل غياب.

وهبت القرية بمن فيها لملاقاة ابنها الحبيب العائد إليها بعد الهجر الطويل، والبعاد المرير.

فالعائد من الديار الأميركية أشبه بالقائم من القبر، بالنافض عنه الأكفان ـ إنه أشبه بالمولود الجديد.

وهؤلاء الإخوان اللبنانيون الضاربون في أنحاء العالم، هل يعودون؟

هل يرجعون إلى الأوطان؟

من يدري؟ قد يحنون إلى لبنان، وقد لا يحنون.

قد يعودون، وقد لا يعودون.

ولذلك ما إن يعود أحد المهاجرين حتى يهرع إلى استقباله الجميع، الأعداء، قبل الأصدقاء، والغرباء قبل الأهل والإخوان.

وجلس سالم العلام، بين بني وطنه على عظمة واعتداد، وأخذ يروي لهم معجزات الغرب، واختراعات العالم الجديد الهائلة.

وجلس القوم حوله يستمعون إليه بلذة ونشوة.

وينظرون إلى زيه الأميركي الغريب، بعجب واستغراب.

وجلس سعيد الجابي قرب سالم العلام على صمت واحترام.

هذا المهاجر العائد إلى الوطن يفرض الاحترام.

فهو يقبض على الذهب ويرتع بالاحترام الرحيب.

وأقامت الأمهات، أمهات الصبايا المعروضات للزواج، على همس ووشوشات: «سالم العلام سيفتش عن عروس، من تراها السعيدة الحظ، تلك التي سيقع اختيار سالم العلام عليها؟»

إلا أن سالماً، المشرف منه الشباب على المغيب لم يفكر في الزواج،

لا، إنه يسعى إلى إنشاء المشاريع العمرانية،

وإنه عازم على «استثمار» أمواله الطائلة.

هو رجل عمل وكد وتعب، وليس رجل حب وزواج.

ما له وللنساء؟ إنه يسعى إلى الابتعاد عنهن فيرتاح من المصائب والكوارث، ويربح.

ولسالم العلام نظريته وآراؤه في النساء.

فهو يعلن أبداً أن النساء مصدر الهموم والآلام، وسبب الفقر والشقاء.

من رغب في الابتعاد عن الألم فليبتعد عن المرأة.

ومن أراد العيش الرغيد والحياة الهانئة، عليه أن ينأى عن ابنة حواء.

ولذلك فسالم العلام لم يفكر يوماً بالزواج.

كل همه في الحياة هو جمع الأموال،

وكل تفكيره في الشغل المتواصل والعمل الدائم.

وما إن وطأت قدمه أرض الوطن، حتى أخذ بالتفكير في المشروع الذي يمكنه فيه أن يكثر أمواله.

وابتدأ بدرس حال لبنان الاقتصادية.

فلاح له الربح الوافر في الزراعة: لبنان بلد زراعي، وزراعي فقط. من يعمل في أرض لبنان الخصبة يضمن الأرباح.

فتراب الجبل اللبناني الأشم سخي مكثار. إنه يعيد حبة القمح ألوفاً، وغرسة الخضار غرسات عديدة.

وهذه الأشجار المثمرة الحافل بها لبنان تحمل في أثمارها الشهية الذهب الوافر والخير الكثير،

هذا ما لاح لسالم العلام، وهذا هو الصواب. ليس في لبنان إلا الزراعة.

وإذا كان ثمة من أزمة في لبنان فهذه الأزمة تعود إلى إهمال اللبنانيين تراب قراهم واندفاعهم وراء المدنية المزيفة الخادعة.

وعمد سالم العلام إلى شراء البساتين والحدائق والكروم.

فابتاع البساتين الواسعة والحدائق الغناء، والكروم الخصبة.

وبنى في قريته قصراً تحيط به الأشجار المثمرة.

ويغسل أقدامه نهر صاف رقراق عذب.

وابتاع سيارة حديثة الصنع فخمة الرياش.

ونام على طمأنينة وراحة.

فأمواله تتكاثر.

وبساتينه وكرومه تدر عليه الأموال الطائلة،

وكل من حوله يقيم على احترامه.

فهو أبداً على ارتياح وابتسام.

وكان سالم العلام ينهض باكراً من سريره، ليجلس على شرفة قصره ممتعاً نظره بتلك الجبال الشماء الخضراء، وبتلك الأودية السحيقة، الجاثية في معبد هذا الكون الفسيح الأرجاء.

ويرشف القهوة، ويدخن لفافته على أنغام العصافير وأناشيد النهر الشجية، الألحان.

ويغيب في التفكير وفي الأحلام، ويضيع في عالم آخر، مغمور بالآمال،

عالم غريب يفرضه عليه ذلك المنظر الخلاب،

منظر لبنان وجباله، وأنهار لبنان وطيوره، وصخور لبنان الغارقة في يم من الجلال والعظمة والمجد.

وذات صباح، فيما سالم العلام يجلس على شرفة قصره مثله كل يوم، مرت به فتاة هيفاء، طلقة المحيا جميلة الوجه رشيقة الخطوات،

وكانت تحمل بيدها جرة فارغة وتسير نحو النهر المتدفق من أحشاء الجبل والمنساب بالقرب من قصر سالم العلام.

وشعر سالم وهو ينظر إلى الفتاة المتهادية على فتنة ودلال، أنه غلب على امره.

لقد أعجبته الفتاة وراقت لعينيه، وشعر بأن قلبه بدأ بالتمرد والعصيان.

وخاف على قلبه من الصرع، وعلى فؤاده من الجموح، فأسرع إلى الداخل واختفى عن مرأى الفتاة الجميلة.

وعزم على أن لا يخرج إلى الشرفة أبداً: لا، لن تزل به القدم.

لن يخرج قلبه عن الطاعة المفروضة.

لن يسمح لعينيه أن تريا ولا لقلبه أن يحب.

سالم العلام سيظل سالم العلام.

لن يكون بينه وبين ابنة حواء وثاق من هوى.

رأيه في المرأة هو هو. لن يحيد عنه.

وأقسم ألاّ تطأ قدماه الشرفة أبداً لئلا يرى ابنة الحسن والجمال.

لئلا يشاهد حاملة الجرة في طريقها إلى النهر.

إلا أنه لم يستطع المقاومة.

فقلبه هذا المتمرد أبداً، أبى عليه الارتداع عن مرأى الحسناء.

وما كاد الفجر يوشح جبال لبنان، في اليوم الثاني، حتى كان سالم العلام على شرفة قصره يرقب حضور الفتاة المبكر في القيام.

وإذا بالفتاة تطلّ. هذه هي، هي بعينها.

هذه خطواتها، وهذا دلالها، وهذه رشاقتها، وهذه جرّتها.

ووقف ينظر إليها، وقلبه في خفقان.

وشاء الهرب، شاء أن يغمض عينيه عن مرأى الجمال، فأخفق.

لم تسعفه قدماه في الهرب. ولا أطاعته عيناه بالغمض.

سالم العلام قهر، قهرته ابنة حواء.

لقد علم ولكن أخيراً، أن لابنة حواء سلطة على القلوب دونها سلطة الأقوياء الحاكمين.

وأخذ يسعى لمعرفة الفتاة، تلك الفتاة التي احتلت من عينه الأحلام، ومن رأسه التفكير، ومن روحه المقام الاسمى. من تكون الفتاة؟

لا شك في أنها من بنات قريته، ولكن ابنة من تكون؟

يجب أن يقف على حقيقتها، يجب أن يعلم من تكون أسرتها. يجب أن يتعرف إليها.

وإذا به، في مطلع كل صباح، واقف على شرفة قصره.

ولكن لا ليرتشف القهوة ولا ليدخن لفافته، بل ليرقب مجيء الفتاة بجرتها إلى النهر.

وراح يسأل عنها معلناً أوصافها الفاتنة، طالباً معرفة اسمها واسم أمها واسم أبيها،

فقيل له هذه أبنة سعيد الجابي.

سعيد الجابي الزجال المشهور؟

أنه يعرف سعيداً، فهو على شرف أثيل وكرامة متناف

لا بأس. سيطلب يد أبنة سعيد الجابي، وسينعم بالزواج منها.

وسيتراجع عن مناصبة المرأة العداء.

يجب أن يتزوج، وإلا لمن يجاهد في هذه الحياة، ومن سيرث هذه الأموال الطائلة؟

وعزم على الزواج. يجب أن ينجب ابناً، أن يخلف ولي العهد.

أن يترك بعده من يحمل اسمه، ويرث أمواله.

أما رأيه في المرأة،

أما اعتقاده الراسخ بالابتعاد عن ابنة حواء،

فهذه آراء واعتقادات مخطئة.

لقد كان يجهل ما هي قيمة المرأة.

ولو أنصف لقال في سره: لقد كنت أجهل الحب.

وتعامى عن الشوط الشاسع بينها وبينه،

تعامى عن عمره الممتدّ إلى ما فوق الخمسين، وعن عمرها الذي لم يشب بعد إلى العشرين.

قال في نفسه: ما قيمة السنين في الأعمار؟ وما هو العمر؟ هل العمر سوى الميزان الذي يزن المادة من الإنسان؟ وهل السنون سوى الاسم الذي اخترعه الإنسان للزمن المار بالعالم؟

أجل ما العمر سوى اسم اخترعه الإنسان الجاهل ما وراء الأسماء والمغمض عينيه عما تنطوي عليه الأسماء.

لقد اخترع الإنسان هذا الاسم ليزيد في مشاكل الحياة لا أكثر ولا أقل.

وهل كان العمر، أو بالأحرى، هل كانت السنون الطوال لتؤثر في رحيل الإنسان عن هذا العالم؟

لا، إن الموت لا يتعرف إلى الأعمار.

والحوادث الجسام في حياة الإنسان لا تعرف معنى لهذا الاسم الذي لا يخفي وراءه سوى السراب.

إذاً، لا بأس إذا تزوج ابن الخمسين بابنة العشرين،

ولا بأس إن تزوجت ابنة الخمسين بابن العشرين، شرط أن تتعارف الروحان ويتفاهم القلبان،

ولكن هل ستتعرف روح سالم العلام إلى روح ناهدة الجابي؟

هل يتفاهم القلبان ويتقاربان؟

هذا هو السؤال الذي كان يتردد في أعماق روح سالم العلام.

ولاح له أن التفاهم بين القلبين أمر يسير.

لا سيما وماله الوافر كفيل باجتذاب القلوب.

هذا ما لاح لسالم العلام: ناهدة ستكون له، سيغريها المال، ويحلو في عينيها صاحب الثروة المدرار، فترضى بالزواج منه.

إلا أن رأي سالم العلام أخطأ في تحديد سلطة المال،

وأصاب في تحديد سلطة الأعمار.

أجل، إن الأعمار لا تؤثر في الزواج إذا ما ارتكز الزواج على أساس من الحب المتين، وهذا نادر في الحياة.

إلا أن المال لم يكن يوماً ذا سلطة واسعة على القلوب والأرواح.

غير أن سالماً تغاضى عن كل شيء.

ونام على اطمئنان: ناهدة ستكون له. سينعم بحبها ويأبى الانفصال عنها.

وسيسعى إلى إسعادها وإلى توفير الراحة لها.

هذه حورية من السماء، تحمل الطهر والحسن والجمال.

ستكون له، ستكون له. ناهدة الجابي ستصبح زوجة سالم العلام.

وأغمض عينيه على طيف ناهدة المنساب منه في الأجفان، والمحتل منه الأحلام العذاب.

* * *

سالم العلام، في دار سعيد الجابي يطلب يد ابنة صاحب الدار.

قال: لم اكن أيها السيد سعيد لأرغب في الزواج، ولم اكن لأرتاح إلى ابنة حواء، إلا أن رصانة كريمتكم ناهدة، وجمالها، وطهرها، ونصاعة جبينها، كل هذه الأشياء أهابت بي إلى الارتداع عن محاربة المرأة، فاصبح سالم العلام على وئام ووفاق مع تلك التي كان يبتعد عنها.

وارتاح سعيد الجابي إلى هذا الحديث الطافح بالثناء على ابنته ناهدة.

وأردف سالم العلام: أجدني فخوراً بأن أطلب يد كريمتكم ناهدة، أيها السيد سعيد.

فصمت سعيد الجابي على تفكير عميق.

ماذا يقول سالم العلام؟ أصحيح ما يتكلم به؟ هل يمكن هذا؟

أيمكن أن يتزوج هذا الثري الكبير، صاحب الأملاك الواسعة والقصر الشامخ، من ناهدة، ابن الزجال سعيد الجابي؟

لا، هذا ما لا يجوز في الحياة.

وطال تفكير سعيد الجابي، دون أن ينبس بكلمة.

فهو لا يعلم بماذا يجيب،

إلا أن سالماً العلام قطع على ابن الجابي تفكيره الطويل بسؤاله:

هل لي أن أعود على بسمة وأمل، أم على تجهم ويأس؟

فنطق سعيد الجابي بالجواب.

قال: إنه لشرف تخلعه عليَّ أيها السيد سالم. لن أرجعك إلا وأنت على بسمة وضاحة زاهية. لك أن تأمر، ولنا أن نطيع.

قال سالم العلام: بل أنتم أصحاب الرأي أيها السيد سعيد، شكراً على ثقتكم بي. وثقوا أن ناهدة ستكون على احترام وكرامة، وستحتل المقام الأول من داري، ومن قلبي أعلى مقام.

وقام سالم العلام مودعاً. لقد اطمأن إلى مصير حبه، ناهدة الجابي ستكون له.

وقام سعيد الجابي يزف الخبر السار إلى ناهدة: ناهدة! إليك هذه البشرى يا ابنتي. لقد طلب يدك مني اليوم انبل وأغنى وأشرف رجل في القرية، أتعلمين من هو يا ناهدة؟...

ولم ينتظر أن يلقى جواباً من ابنته.

فأردف على الفور: إنه سالم العلام، لقد طلب سالم يدك يا ناهدة.

وانتظر أن تطفو البسمة على ثغر ابنته، وهذا الخبر السار يقع منها في الأذنين، إلا أن ناهدة وقفت واجمة. ماذا يقول والدها؟ هل صحيح أن سالماً أرادها زوجة له؟

قالت: بماذا ينطق أبي؟ بماذا؟

قال سعيد الجابي: هي الحقيقة يا ناهدة. سالم العلام جاءني الساعة طالباً يدك، بعد أن وقف على أخلاقك العالية وجمالك الفتان، وتهذيك الرفيع.

قالت: وماذا كان جواب أبي؟

قال الوالد: وماذا عساه يكون جوابي يا روح أبيك؟ وهل يمكننا أن نقع على من هو أرفع مقاماً، وأكثر مالاً من سالم العلام؟ لقد كان جوابي القبول، يا ناهدة!

فأجفلت ناهدة، وتراجعت تقول:

لم اكن أنتظر من أبي أن يعلن جوابه قبل أن يقف على رايي الصريح.

قال: وما هو رايك الصريح، يا ناهدة؟ ما هو؟ هلاً اعلنته.

قالت: بكل صراحة وشموخ: رايي أن سالماً العلام لا يصلح زوجاً لناهدة الجابي.

فدهش سعيد لجواب ابنته.

وبدأ الغضب يلوح منه على الجبين.

قال: ولماذا؟ لماذا لا يصلح ابن العلام زوجاً لابنة الجابي؟

قالت: لأسباب عديدة، أولها أننا لا نعرفه المعرفة التامة، وآخرها أنه يكبرني بسنين مديدة...

فامتعض سعيد الجابي، وكلام ابنته ينزل في أذنيه.

قال: هذه خرافات وأوهام يا ناهدة، ما لك ولها؟ أمواله كفيلة بإسعادك السعادة التامة. ادفعي عنك هذه العقائد والتقاليد. ما لك ولعمره؟ ما لك ولأخلاقه؟ ما لك ولمعرفته التامة؟ يمكنك أن تتمتعي بأمواله، وترتعي بقصره الشامخ على عظمة ودلال. ستكونين زوجة سالم العلام فتمتلكين قلبه وماله.

قالت ناهدة: لا يا والدي، إنك لعلى ضلال، لا يمكن الإنسان أن يقبض على المال والحب في آن واحد، هذان اسمان

لا يجتمعان، إنهما لعلى خصام دائم، الحب والمال. حيث يوجد الحب، لا يقيم المال؛ وحيث يقيم المال لا يوجد حب! إنك لترميني في النار بموافقتك على زواجي من سالم العلاء. إنك لتبيعني بالمال في دفعك إياي إلى قصر سالم. رحماك يا والدي، لا تَجْنِ عليَّ، ولا تدفعني إلى التمرد على أوامرك.

فأجفل سعيد الجابي.

بماذا تنطق ناهدة؟ هل وصلت القحة بها إلى هذا الحد؟

لا فهو لا يسمح لها بأن تنطق بهذا الكلام.

ولا يريد أن يستمع إلى تهديدها.

قال بغضب: ناهدة!. . . لقد قلت كلمتي، ولا سبيل إلى الرجوع عنها. ستكونين لسالم العلاء شئت أم أبيت. سالم لقمة سائغة لن نقع عليها في كل آن، وقد قيل «إن حظ الإنسان يدق مرة واحدة لا غير، والويل لمن لا يستفيد من هذه المرة التي يبزغ فيها حظه». لا تعانديني في ما أروم. هذه مشيئتي، يا ناهدة، فلا تعترضي على مشيئتي.

وخرج وهو على ثورة حمراء، دون أن يستمع إلى كلام ناهدة: يا للفتيات! إنهن لعلى ضلال،

وبالرغم من ضلالهن، فهن على عناد قوي، ومعارضة دائمة.

إذا قيل لهن: «أجل»، قلن: «لا». وإن قيل لهن: «لا» قلن: «أجل»!

وأقامت ناهدة على لوعة وأسى.

ويلها! من أين أتتها هذه المصيبة الفادحة؟!

ماذا أتى بسالم العلاء إلى القرية؟ ألم يكن بوسعه أن يظل بعيداً عن الأوطان؟!

وتظل هي بعيدة عن المصائب والويلات والدموع؟

وبكت حتى كادت تجف من مقلتيها الدموع. فالرزية على جسامة وكبر.

أبوها لن يرجع عن وعده، ولن يرحمها.

هي تعلم صلابة أبيها في عقيدته،

ثم مقولة سعيد الجابي يجب أن ينفذ.

إلا أن ثمة أملاً ضئيلاً كان يلوح من وراء الغمامة القاتمة السوداء.

ستدعو ناصراً الشهال إلى طلب يدها، وأبوها يحب ناصراً ويحترمه. ترى هل يرضى والدها بطلبه، وترجح كفة ناصر على كفة سالم؟

وأسرعت إلى الحبيب الوفي.

أسرعت إلى ناصر الشهال تبلغه الخبر القاصم: ناصر!. . . لقد عزم والدي على أن يزوجني من سالم العلاء. ما العمل، ما العمل يا ناصر؟

فوجم ناصر وارتاع: ماذا تقولين يا ناهدة؟ هذا مستحيل. أنت لي، لي وحدي. لن تكوني لسواي. لن أتخلى عنك إلا وأنا جثة هامدة!

قالت ناهدة والدمع يغمر مقلتيها: ناصر! ما عارضتك فيه بالأمس أدعوك إليه اليوم، اطلب يدي من أبي يا ناصر!.. والدي يحبك، وأخي يقيم على صداقتك، وأمي معجبة بك. أسرتنا كلها تقيم على احترامك. أما ذاك، سالم العلام، فلا أمي ولا أخي يعرفانه، ما هناك إلا أبي. ويمكن لأمي ولأخي إقناع أبي بالعدول عن زواجي من سالم العلام. أسرع، أسرع يا ناصر، قبل فوات الأوان.

قال ناصر: إني لأسير الساعة إلى أبيك في طلب يدك يا ناهدة. سأحاول كل جهدي لإقناع أبيك بالموافقة على سعادة قلبينا، فإذا أنالني مناي، أنا عبده طيلة أيام حياتي، وإذا ردني خائباً فالويل لأبيك يا ناهدة!

فأجفلت ناهدة. ما يقوله ناصر يدعو إلى القلق.

هل يصطدم ناصر بأبيها؟

وقلقت كل القلق، وودت لو يطاوعها قلبها في الابتعاد عن حبيبها،

ودّت أن تقف نبضات هذا الخافق في صدرها أبداً.

ودّت أن تموت فترتاح وتريح.

وحاولت دعوة ناصر إلى الابتعاد عنها: ناصر! ابتعد عني يا حبيبي. قربك مني يحمل لقلبينا العذاب. لا، لا تقابل والدي يا ناصر، لا تقابله، بل سر بعيداً عني إلى حيث لا تراني ولا أراك.

إلا أن ناصراً لم يستمع إلى كلامها.

فالتفت إليها قائلاً: سأحمل والدك على الموافقة يا ناهدة، مهلاً مهلاً!

وتوارى عنها كالبرق الخاطف.

إلى أين؟

إلى دار سعيد الجابي.

إنه ليحمل قلبه بين يديه، فهل يقدر لهذا القلب الحياة؟

ووصل إلى دار أستاذه، وجلس يعلن لرب الدار رغبته الحارة في الاقتران بكريمته.

قال: إن ما لاح لي في ناهدة من أدب وتقوى يهيب بي إلى طلب يدها من أستاذي الكريم.

قال سعيد: لقد كان بودّي أن أجيبك إلى طلبك يا ابني. إلا أن ثمة من سبقك إلى قلب ناهدة. لقد قضي الأمر. وعدت بها سالماً العلام، لن أرجع بكلامي يا ناصر، ولو أدى ذلك إلى قطع عنقي.

وشعر الكروان بأنَّ أستاذه صلب العقيدة، راسخ العزيمة.

شعر بأنَّ المسألة من الصعوبة بمكان.

فتمتم: ولكنك تقضي عليَّ القضاء المبرم في حرماني من ناهدة، أيها السيد سعيد. أنا أحب ناهدة. أحبها بكل ما يستطيع قلب أن يحب في هذه الحياة. أحبها وأود لو فديتها بنور عيني. أرجوك أيها السيد سعيد، لا تحرمني منها. أنت أستاذي. أنت دفعتني بيدك إلى السير في ميدان الحياة، فلا تدفعني بيدك أيضاً إلى الانحدار في ظلام القبر. إني لأموت إذا أقصيت عني ناهدة. أنا لا أطيق البعاد عنها، رحماك! رحماك يا أستاذي!

وغرق ناصر الشهال في يم من الاستعطاف والاسترحام، محاولاً إقناع أستاذه بالرضوخ لتوسلاته.

إلا أن سعيداً الجابي لم يلن في عقيدته.

قال: أنت لدي بمقام ابني فارس يا ناصر، لم أكن لأردَّ لك طلباً لو لم يكن هناك سالم العلام. فسالم كان الأسبق في طلب يد ناهدة. لقد وعدت سالماً بها، ولن أعود عن وعدي.

وعاد ناصر إلى الاستعطاف، وعاد سعيد إلى الصلابة.

ذاك يفتح باباً، يوصده هذا، وهذا يدلي باقتراح يرفضه ذاك.

وأخيراً، وقد يئس ناصر من إقناع والد ناهدة، لجأ إلى الوالدة: رحماك يا أم ناهدة! هلا أرشدتني إلى حيلة أتمكن بها من إقناع

أستاذي سعيد. أنا أحب ابنتكما، ساعديني عليه يا سيدتي، ولك الأجر والثواب.

فقلبت الوالدة شفتيها، وتوارت عنه.

هي لا تقوى على مخاطبة زوجها بالأمر. لزوجها رأيه الصائب، فليفعل ما يشاء.

واحتار ناصر في أمره. إلى من يلتجئ وبمن يستعين؟

ليس ثمة سوى الحبيبة الولوع.

ناهدة وحدها ستساعده. ستمد يدها لانتشاله من الوهدة العميقة الغور.

وحاول مقابلة ناهدة، حاول أن يتصل بها فيدعوها إلى الفرار من الدار.

سيفر بناهدة.

ولذويها أن يفعلوا ما يشاؤون،

ولكنه عجز عن مقابلة حبيبته.

فسعيد الجابي، وقد شعر بالخطر المحدق بابنته، عمد إلى إخفائها عن العيون، فأوصد عليها أبواب الدار.

وأوصى والدتها بها: ناهدة لن تخرج من الدار مطلقاً، الويل لك ولها إذا علمت بخروجها مرة واحدة!

وأقامت ناهدة في الدار على لوعة وأسى ودموع.

وأقام ناصر الشهال على ولوع واشتياق وحنين.

الفصل الثالث

ازدانت دار سعيد الجابي بالشموع، وبالورود.

فاليوم يوم زواج ابنته ناهدة من سالم العلام.

لقد شاء سعيد الجابي أن يكون عرس ابنته على رونق وعظمة، لا سيما والصهر العزيز يقبض على ثروة طائلة،

لا بأس إذاً إن أسرف والد العروس في الإنفاق.

ابنته وحيدة ستتزوج مرة واحدة لا غير،

لذلك أراد عرسها مفخرة الأعراس.

وفيما القوم خارج الدار يهزجون ويرقصون ويفرحون، كانت ناهدة تنزوي في غرفتها، تبكي حظها العاثر الكؤود.

وتندب قلبها الوفي الصريع.

وإذا بطرقات خفيفة تقع على زجاج نافذتها،

فاضطرب منها الفؤاد: من يكون الطارق الممعن في تخديش أنثيها،

وقامت إلى النافذة لتشاهد صاحب الطرقات: من يكون؟

وإذا بها تتراجع على ذعر وحيرة: من؟ من أرى؟ أنت؟.. أنت؟ ناصر؟

قال: أجل يا ناهدة، أنا ناصر. لقد أتيتك حاملاً قلبي الجريح بين يدي، أتيتك يا حبيبتي لأطير بك من هذه الدار التي رأيت فيها العذاب، والتي صرع بين جدرانها قلبي وقلبك. تعالي، تعالي يا ناهدة، تعالي نفر من هذه الدار، بل من هذه البلاد، إلى حيث لا تقع منا العين على أهل ولا على أحباب. تعالي يا ناهدة، لنمضي إلى حيث نحيا حياة سعادة وهناء، إلى حيث نبعد عن أهلك وعن أهلي، إلى حيث ننعم بحبنا اليافع المضطرم النيران. تعالي، تعالي يا حبيبتي.

قالت ناهدة بحسرة وألم: وإلى أين تريد مني أن أسير يا ناصر؟ ووالدي ما عساه يفعل بعد أن أترك له ورائي الذل والعار؟ وأمي؟ وأخي؟ وسمعتي؟ أتريدني على ذل وعار يا ناصر؟ أترضى بأن يقال عن حبيبتك ناهدة ما يشين؟

قال ناصر: وأنت؟ أترضين لحبيبك العذاب يا ناهدة؟ أنذبح قلبينا ونقدمهما على مذبح الأنانية والرجعية والعوائد والتقاليد؟

فاحتارت ناهدة بماذا تجيب؟

واضطربت كل الاضطراب.

إنها تقف بين النار والماء، ويلها إذا غرقت في الماء، وألف ويل لها إذا احترقت بالنار.

إنها ترضى بأن تذبح قلبها، إنها ترضى بأن تضحي التضحية الكبرى من أجل سمعة أبيها وشرفه.

غير أنها لن ترضى أبداً بأن تجعل من قلب حبيبها محرقة تقدم من أجل أبيها ومطامع أبيها.

وأخذت تفكر، تفكر في حيلة تنجيها من هذه الورطة.

إلا أن ناصراً قطع عليها تفكيرها بكلامه.

قال: أسرعي يا ناهدة، أسرعي قبل فوات الأوان، أنا بانتظارك يا حبيبتي، هناك، هناك في غابة الصنوبر الوارفة. هناك حيث اجتمعنا على انفراد للمرة الأولى. هناك أقيم على انتظارك، أسرعي، أسرعي بالفرار.

قالت: لا يا ناصر، لن أفرّ. اذهب. لك الله يا حبيبي، ولي الصبر الطويل على بعادك عني. اذكرني، اذكرني يا ناصر.. وداعاً...

ودعته إلى الذهاب، إلا أن ناصراً أبى الذهاب.

قال: إما أن تفرّي وإياي، وإما أن أقتل نفسي. سأنتظرك إلى ساعة واحدة، ساعة واحدة فقط. إذا لم تحضري فسأكون بعدها بين عداد الأموات.

ولم ينتظر منها جوابا، ولا اعتراضاً، بل قفز إلى الطريق العام، وتوارى عن عينيها كومضة برق.

ووقفت ناهدة مندهشة:

ويلها! ما عساها فاعلة؟

هل تذهب؟ لا. لن تذهب، لكنها إذا لم تذعن لأمر ناصر، فقدت ناصراً إلى الأبد.

هو سينتحر، سيموت.

وكادت تجن. أجل، أجل، ستذهب إلى الغابة حيث ينتظرها الحبيب، وستفر وإياه إلى أقاصي الأرض.

لن تأبه لشيء.

سعادتها قبل أوامر أبيها، وحياة ناصر قبل كل شيء...

وارتدت معطفها، ووثبت إلى حليها تخفيها في الصدر، وانسلّت من الباب وهي على قلق واضطراب.

ورآها البعض فتهامسوا: إلى أين تسير العروس؟

فلم يلقوا جواباً.

قيل: هي تذهب إلى الحديقة، ستعود بعد برهة وجيزة.

ولكن ناهدة لم تعد، فخاف الجميع وأسرعوا إلى الوالدين مستفهمين: أين تكون ناهدة أيها السيد سعيد؟

فقلب سعيد الجابي شفتيه.

قال: لست أدري أين تكون؟ هل خرجت من غرفتها؟

قالوا: لقد خرجت منذ دقائق ولم تعد.

فطار صواب سعيد الجابي.

وأسرع إلى غرفة ابنته منادياً: ناهدة!! ناهدة!! ناهدة!

ولكن لا أثر لناهدة في جوانب الدار.

وأدرك الجميع أن ثمة من اختطف ناهدة.

ولكن ليس هناك من وقف على اسم مختطف ابنة سعيد الجابي.

لا يعلم أحد من هو ذاك الهائم بناهدة، الطائر بها من دار أبيها.

لم يقف أحد عل اسم ذلك العاشق الولهان،

إلا اثنان: سعيد الجابي وامرأته.

وأسرع سعيد الجابي إلى زوجته،

وأشار إليها بأن تلحق به إلى غرفتهما من الدار.

ولحقت أم ناهدة بزوجها.

فأشار إليها بأن توصد الباب، ففعلت.

ووثب سعيد الجابي إلى زوجته على غضب عاصف صاخب هادراً: أين هي ناهدة يا شقية؟.. أنت تعلمين أين هي.

فأنكرت أم ناهدة التهمة.

قالت: لا... أنا لا أعلم أين هي.

فهدر: بل أنت تعلمين، وقد تكونين على اتفاق معها للهرب من عريسها سالم العلام، إلى حبيبها ناصر الشهال.

فاستأنفت أم ناهدة الكلام، محاولة دفع التهمة عنها. قالت: لا. وحياتك يا سعيد، أنا لا أعلم شيئاً، وليس لي يد في هربها. لست أدري كيف هربت، ولا لماذا هربت، ولا إلى أين هربت.

وهدر سعيد الجابي: يا لها من مجرمة جانحة، تريد أن تمرّغ جبيني الناصع البياض بالوحول. والله لأقصفنَّ عمرها، وعمر خاطفها اللعين ناصر الشهال.

فحاولت أم ناهدة أن تحدَّ من غضب زوجها، وهي تراه في ثورة غضبه اللاهب العاصف، وقد خشيت أن يدفع به الغضب إلى الانتقام من ناهدة انتقاماً لايعلم إلا الله مداه، ولا حدوده.

قالت: خفِّف من غضبك يا سعيد. ناهدة ابنتنا. لا تعمد إلى الانتقام من ابنتنا. فكِّر جيداً برصانة وهدوء قبل أن تقدم على ارتكاب خطإ، لا تستطيع أن تجد فيه سبيلاً إلى الندم، يوم لا ينفع الندم السحيق.

ولم يكن كلام أم ناهدة إلا ليزيد من غضب الزوج الثائر،

فهدر، وهو يحاول الخروج من الغرفة: أتدافعين عن ابنتك

المجرمة الشريرة، أيتها الشقية، وأنت تعلمين أيَّ خزي وأيَّ ذل، وأيَّ عار سينزل بي وبسمعتي وبشرفي، بسبب طيشها وفجورها؟!

وخرج سعيد الجابي إلى الحديقة، ليفاجأ بأنصار العريس المنكوب سالم العلام، وهم على ثورة لاهبة عاصفة، وقد وصل إليهم الخبر المشؤوم.

وهدر سالم العلام، وهو يشاهد سعيداً الجابي مقبلاً نحوه: أترى ما فعلت ابنتك المجرمة يا سعيد الجابي؟.. لقد هربت مع حبيبها ناصر الشهال. أبناء القرية كلهم باتوا على علم بهذه الجريمة النكراء. أتكون راضياً يا سعيد الجابي عمّا اقترفته ابنتك ناهدة؟

فتمتم سعيد الجابي، وقد أحسَّ بالوخزة المؤلمة في كلام العريس المنكوب: أيخيل إليك أنني أرضى لك بالإهانة، وأرضى لنفسي بالذلّ والهوان يا سالم العلام؟ لا، والله، أنت على خطأ في ما يخيَّل إليك. وسأبرهن لك، ولجميع أبناء القرية، أن ليس ليد أن تمتدّ إلى صرح الشهامة والنبل والكرامة والشرف الذي يتربع عليه سعيد الجابي. أنا سأعيد ناهدة طائعة نادمة من دار ناصر الشهال. وها أنا شاخص الآن إلى تلك الدار، لأنتقم من خاطفها وأستعيد ابنتي.

وارتاح سالم العلام بعض الارتياح، وكلام سعيد الجابي ينزل منه في الأذنين.

وهتف مناصروه بحماسة وارتياح: نحن كلنا في إثرك نسير لمساعدتك في ما أنت مقدم عليه، يا سعيد الجابي.

وسار الموكب الثائر الغاضب.

ومشى فيه مناصرو العريس،

وفي المقدمة اثنان: سعيد الجابي وسالم العلام.

وفي هذه الأثناء كان ناصر الشهال وحبيبته ناهدة بين والد ناصر ووالدته وبعض أقاربه وأصدقائه، ومنهم زملاؤه شعراء الزجل الموهوبون يتأهبون لإعداد معدات العرس وطقوسه، عندما فوجئوا بموكب الثائرين يحيطون بالدار، وهم يهتفون مطالبين بالانتقام، وبعودة عروسهم الحسناء إلى عريسها.

وكان لا بدَّ من المقاومة.

فوثب أنصار ناصر الشهال إلى أنصار سعيد العلام يتصدّون لهم بعزم وحزم واعتداد.

ونشبت المعركة.

معركة حامية الوطيس.

بدأت بالأيدي أولا،

ثم بالعصي والحجارة.

ثم تطوَّرت إلى معركة بالسلاح.

فبدأ أزيز الرصاص يلعلع في فضاء تلك القرية الهانئة الوادعة.

وخشيت ناهدة أزيز الرصاص يقع منها في الأذنين، أن تسفر المعركة الحامية الوطيس عن وقوع بعض الضحايا.

فوثبت إلى حبيبها ناصر الشهال هاتفة: ناصر.. يا حبيبي، أنا ساعود إلى والدي. لن أرضى بأن تسفح نقطة دم في هذه القرية من أجلي، ولا أن ينزل بأبناء القرية الشقاء من أجل سعادتي... الوداع يا ناصر، الوداع يا حبيبي.

فحاول ناصر الشهال أن يردع حبيبته ناهدة عن الخروج من الدار.

إلا أن ناهدة لم تنزل عند محاولته.

وأسرعت بالخروج من دار آل الشهال، محاولة الوصول إلى والدها، تحت وابل من الرصاص المنهمر في ساحة المعركة.

وفجأة سقطت ناهدة مضرَّجة بدمائها.

فقد أصابتها رصاصة جانحة في الصدر،

وفوجئ المتحاربون بسقوط ناهدة.

وشاهدوا الدماء تنزف بغزارة من صدرها.

فوجموا.

وتوقف انهمار الرصاص. . .

وذعر سعيد الجابي وهو يشاهد ابنته الحبيبة ناهدة ملقاة على الأرض والدماء تتدفق من صدرها.

فهرول كالمجنون إليها، وقد نسي غضبه عليها ورغبته في الانتقام منها، وهو يهدر: ناهدة!. . ناهدة! ابنتي الحبيبة ناهدة!

وأسرع الجميع إلى العروس الجريح، وفي الطليعة ناصر الشهال، يحملونها ويسرعون بها إلى المستشفى.

وهناك في المستشفى حاول الأطباء إنقاذ حياة العروس الحسناء.

فباءت المحاولة بالفشل.

فالرصاصة نازلة منها في الصدر، وقد أصابت من شغاف القلب مقتلاً مميتاً.

وساد الوجوم أبناء القرية، وقد أعلن لهم الأطباء وفاة ناهدة الجابي.

وذعر ناصر الشهال.

وأبى أن يصدق ما يعلن الأطباء.

فهتف بخوف وهلع: لا. . . لا. ناهدة لم تمت. . لم تمت ناهدة. فهي تحبني، ولن تتركني وتبعد عني. أريد أن أراها. أريد أن أكلمها، أريد أن أتحدث إليها.

واقتحم ناصر الشهال غرفة العناية الفائقة حيث لفظت ناهدة أنفاسها الأخيرة، بعد أن عجز الأطباء عن إنقاذها، ليقف على ألم سحيق، ودمع غزير، وهلع والتياع، وهو يرى حبيبته ناهدة هامدة لا حياة فيها ولا روح.

وانكبَّ ناصر الشهال على صدر ناهدة الحبيبة.

وراح يقبل يديها ويلثم جبينها، ويداعب شعرها بأنامله الواهية المرتجفة، متمتماً: ناهدة!. ناهدة!.. انهضي يا حبيبتي. قومي يا ناهدة، انهضي يا حياتي، انهضي، اسرعي. فقد حان موعد العرس، أيتها العروس الحبيبة.

وعمَّ الحزن أرجاء القرية الوادعة.

وانبرى شعراء الزجل، زملاء ناصر الشهال، ليودعوا العروس الحسناء بما لديهم من روائع الرثاء الأليم الحزين.

وكانوا قد أعدّوا روائعهم لإنشادها في عرس ناهدة وناصر.

لا بأس، فهم سيلقون الروائع الدامعة في مأتم العروس.

فقد انقلب العرس إلى مأتم.

وما كانت روائع الزجالين النادبين الراثين التي يودِّعون بها عروسهم الندية الشباب، العطرة الشذا، الوداع الأخير، إلا لتزيد من دموع المشيعين ولوعاتهم، وحزنهم العميق.

فالقرية كلها في مناحة بعيدة المدى عميقة القرار.

وسار أبناء القرية كلهم في موكب الجنازة، والدموع تغمر عيونهم.

فقد سحق قلوبهم الندم، وأدركوا أي خطأ ارتكبوه بحق ابنتهم ناهدة الجابي.

وكان أشد أبناء القرية ندماً وحزناً وأسى، اثنان: سعيد الجابي، والد ناهدة، وسالم العلام، عريسها.

أما والدة ناهدة، فلم يسعدها الحظ بتشييع ابنتها الحبيبة إلى المقرّ الأخير.

بل هي ضربت لها موعداً للقاء في العالم الآخر...

لقد أصيبت أم ناهدة بنوبة قلبية صاعقة، قضت عليها عندما وقع نبأ وفاة ناهدة في أذنيها.

* * *

أشرف الليل على الزوال.

والقرية اللبنانية الخضراء، تهجع في حضن الظلام الدامس الرهيب.

فلا نور يشعّ فيها ولا نار.

بلى ثمة نور يلوح في ضواحي القرية، قرب المعبد الهاجع في صمت وخشوع، هو نور شموع تجثم فوق قبر ندي التراب، أشعلتها يد حبيب مدنف ولوع، سلبه الموت حبيبته العروس الحسناء.

وقرب الشموع المضاءة يجلس شاب خط الحزن فوق جبينه أسى عميقاً يحمل في يده كاساً هي الكاس التي شربت منها حبيبته.

هو ناصر الشهال، الكروان الصامت أبداً الجالس دائماً فوق قبر حبيبته ناهدة على وجوم وجنون.

وقد يتكلم ذلك المجنون أحياناً.

فيسمع الليل بعض كلماته: «قومي يا ناهدة نرشفها صافية، ها هي الكأس التي شربت منها الخمر يا حبيبتي، قومي يا ناهدة، أنا ما زلت في انتظارك. هنا هنا، تعالي، تعالي، يا حبيبتي، فأنا أقيم على انتظارك أبداً.. إنه الانتظار الطويل.. الطويل إلى حيث لا نهاية له».

وقد ينشد الزجل أحيانا،

ولكن ماذا ينشد؟

هو ينشد قولاً واحدا لا غير:

«عاشق يرقب نجم سهيل   يتنقل من ميل لميل
قدام منزل محبوبو   واقف ناطر طول الليل»

هذا آخر ما نظم الكروان، وهو يردد هذا الشعر القومي دائماً، ويطرب للشطر الأخير منه فيردده مراراً عديدة: «واقف ناطر طول الليل».

أجل إنه لينتظر الليل بكامله، أمام قبر حبيبته ناهدة، على أمل اللقاء القريب...

تمت

معاً إلى الأبد

الفصل الأول

عاطف السماح وهند المرتضى على حب وارف الظلال فسيح الأرجاء بعيد المدى.

لقد عصف الهوى بقلبيهما وعبث الحنين بروحيهما.

فانطلقا يرشفان من معين الحب بنهم ولا يرتويان.

وعاطف السماح وهند المرتضى من بلدة واحدة، إنهما مواطنان، بل هما أكثر من مواطنين. إنهما جاران.

دار سعيد السماح والد عاطف لا تبعد عن دار ناصر المرتضى سوى خطوات قليلة، كان الحبيبان المتيمان يجتازانها كل يوم ليلتقيا على شوق وهوى وحنين.

وشاع حبهما في البلدة في بلدة «كسب» في محافظة اللاذقية في سوريا.

تلك البلدة الجميلة الفاتنة الجاثمة على صدر منطقة من مناطق سوريا الجميلة الباسمة الخضراء.

حيث ترتدي الطبيعة الفاتنة أبهى الحلل وأبعدها جمالاً.

حيث تتفجر الينابيع وترتفع الأشجار الباسقة وتقبل المواسم إقبالاً ما بعده من إقبال.

هناك في أحضان الجبال والتلال والوهاد التي يؤمها السياح والمصطافون فيلقون فيها الهواء العليل والماء النمير والمناظر الفاتنة الرائعة البعيدة السناء.

وانتشر الخبر في «كسب».

خبر حب عاطف وهند.

وعلم الجميع في المدينة الزاهية الخضراء أن عاطفاً بن سعيد السماح يحب هند ابنة ناصر المرتضى.

وأهلهما، حتى أهلهما، آل السماح وآل المرتضى، كانوا يعلمون بوثيق الهوى الرابط قلب ابنهم عاطف بقلب ابنتهم هند.

وارتاحوا لذاك الهوى، وتمتموا: «هند لعاطف وعاطف لهند».

وهند وعاطف درجا معا، وشبّا معاً.

كانا، وهما طفلان، يلعبان في السهول والمروج والوهاد والتلال معاً.

ويندفعان نحو الغدير يتراشقان بالمياه على قهقهة تنبعث منها براءة الأطفال.

وكثيراً ما كانت الطفلة هند تمسك بيدها جارها الطفل عاطف وتقوده إلى دارها لتقول لأمها: «نحن، أنا وعاطف، جائعان نريد أن نأكل يا أمي».

وتندفع الأم لتحمل للطفلين الطعام وتقدمه لهما بيدها..

وكثيراً كثيراً ما يطل عاطف على دار والديه، وهو ممسك بيد هند ليقول لأمه: «نريد أن نأكل».

وتهرع أم عاطف لتقدم الطعام للطفلين.

وتغمض عينيها وهي تشاهدهما في فرحتهما وهنائهما.

وتتمتم: «أحرسهما يا رب..».

ولم يكن الطفلان يطيقان أن يبتعدا.

إنهما أبداً معاً.

في الحقل وفي السهل وفي البستان وفي الكرم وفي الحرج وعند الغدير...

ومرت السنون...

وإذا بالطفلين الصغيرين يشبان إلى الطريق، طريق العمر البعيد.

ودرجا في الفتوة، فكانا يذهبان إلى المدرسة معاً، ويعودان إلى البيت معاً.

وكان عاطف الحارس الأمين لهند، تلجأ إليه أبداً في الملمات.

فيدافع عنها ويحميها ويبعد عن عينيها ما يؤذي عينيها، وعن سمعتها ما يسيء إلى سمعتها.

وكثيراً كثيراً ما كان يؤنبها لأنها تأخرت عن موعد المدرسة أو لأنها ارتدت ذلك الثوب الحريري الذي يكشف عن كتفها أو عن عنقها. . .

وتتقبل هند التأنيب بالرضى والإذعان لما يريد عاطف.

فكأنه صاحب الأمر والنهي.

ولم يكن لناصر المرتضى من الأولاد سوى هند.

فهي وحيدة لوالديها.

كما أن عاطفاً وحيد لوالديه.

فكأن الله عز وجل أبى إلا أن يساوي بين هند وعاطف حتى في المقام عند الوالدين.

هي وحيدة لوالديها وهو وحيد لوالديه.

مقامها عند والديها كمقامه عند والديه.

كل ما يملك ناصر المرتضى هو لهند.

وكل ما يملك سعيد السماح هو لعاطف.

وماذا يملك سعيد السماح؟

إنه لا يملك من حطام هذه الدنيا سوى الكرم والبستان والبيت المتواضع الصغير الجاثم في جانب البستان على تواضع وذل وانكسار.

وناصر المرتضى لا يملك من دنياه سوى قطعة الأرض التي ورثها عن أبيه، والبيت الذي يقيم فيه.

وكان ناصر وسعيد يأملان أن يوفرا لولديهما ميراثاً متواضعاً.

ما يملك سعيد سينتقل لعاطف، وما يملك ناصر سينتقل لهند.

ويصبح لديهما، لدى هند وعاطف، من الميراث ما يدفع عنهما البؤس والفقر والشقاء.

هذا ما حلم به ناصر المرتضى وسعيد السماح، إلا أن حلمهما ما تحقق، والآمال العذاب تبخرت سراباً في سراب.

فقد أنهى عاطف علومه في معهد كسب، وقد درج في السابعة عشر من العمر.

وكان والده قد عزم على أن ينتقل به من المدرسة إلى الكرم والبستان، ليصبح مثله فلاحاً يزرع الأرض وينتظر الحصاد ويسقي الدوالي المثقلة بالعناقيد عرق الجبين، وينتظر القطاف.

غير أن الأستاذ أبا إبراهيم، وثب إلى سعيد السماح ليقول:

عاطف في مقام ابني يا أبا عاطف. وإنني لأحرص على مستقبله حرصي على مستقبل ابني إبراهيم، لن أرضى عن انتقال عاطف إلى الحقل وهو لم يرتوِ من العلوم، وما وصل إليه في مدرستي لا يكفي لإنارة السبيل أمامه نحو الحياة. عصرنا اليوم غير عصرنا أمس، وإذا كان المرحوم والدك لم يجد عليك بالعلم فذلك لأن ذاك العهد لم يكن عصر إنارة وإشعاع وعلوم، بل كان عهد حراثة وزرع وحصاد. أما اليوم، في عصر النور، فليس ثمة مقام للجهلة بين المثقفين.

قال أبو عاطف: لم أفهم ما تعني يا أبا إبراهيم.

قال أبو إبراهيم: أعني أن الواجب يدعوك ويلحّ في الدعوة لتوفير العلم لعاطف، وعاطف ذكي موهوب، أن أساتذة أشهد له بالتفوق والذكاء. لا تحدّ من الشعلة المتقدة في رأسه، ولا من النور الساطع في عقله. لا تكن مجرماً حيال ابنك، يا سعيد. يجب أن تنتقل به، ليس إلى الحقل والكرم والبستان، بل إلى معهد عال في اللاذقية أو في دمشق.

فدهش سعيد السماح وقلق، وهمس بعد تفكير قصير: ومن أين لي المال الكافي يا أبا إبراهيم؟.. أنت تعلم أنني لا أملك إلا الكرم والبستان وعليهما أعتمد في توفير ما يحتاج هذا البيت من نفقات.

قال أبو إبراهيم: ليس لي أن أبحث لكم عن المال. واجبي

نحوكم قمت به. لقد أشرت عليكم بأن توفروا العلم لعاطف قبل أن توفروا له الطعام والثياب، والعلم اليوم ضروري للإنسان مثل الماء والطعام والهواء.

فوجم سعيد السماح، وانغمس في صمت وتفكير: أبو إبراهيم على حق. العلم أصبح ضرورياً للإنسان.

وعاطف يجب أن يتربع من العلم في أعلى مقام.

ولكن كيف سيحصل على المال؟ ومن أين؟..

هذا ما كان يشغل بال سعيد السماح.

ولجأ إلى زوجته أم عاطف، يستشيرها في الأمر.

قال: أبو إبراهيم أشار علي بإكمال علوم ابننا عاطف، وأنت تعلمين يا أم عاطف أننا لا نملك مالاً، ولسنا قادرين على تنفيذ ما أشار به أبو إبراهيم. ما العمل؟ ما العمل؟

قالت أم عاطف دون تردد: أبو إبراهيم على حق. عاطف يجب أن يكمل علومه.

فأجاب بتأفف: وأنت أيضاً يا أم عاطف؟!

قالت: أجل علينا أن نسعى لإسعاد ابننا، وليس لنا إلاّه على هذه الأرض.

قال: ومن أين سنحصل على المال؟

فوجمت: صحيح. من أين سيحصلان على المال الكافي لتوفير العلم لابنهما عاطف؟ من أين؟

وغرق الاثنان، الزوج والزوجة، في صمت عميق.

وانصرفا إلى التفكير.

الاثنان يفكران في نقطة واحدة: كيف سيحصلان على المال لشراء العلم لابنهما عاطف؟

ورفعت أم عاطف نظرها إلى أبي عاطف بعد صمت طويل سحيق لتقول: لماذا لا تبيع خاتمي ومبرومتيَّ يا أبا عاطف؟

وابتسم أبو عاطف لزوجته. وهمس: الخاتم والمبرومتان لا تكفي لشراء الكتب والأدوات المدرسية، يا أم عاطف. نحن لسنا بحاجة إلى عشر ليرات ولا إلى عشرين ولا إلى مئة ولا إلى ألف بل إننا نحتاج إلى الألوف. هل تفهمين؟

فازدادت أم عاطف وجوماً:

أيكون ثمن العلم باهظاً إلى هذا الحد، فلا يكفي ثمنُ الخاتم والمبرومتين؟

وعاد الصمت ليخيم على الزوجين.

وانصرف الاثنان إلى التفكير.

وعادت أم عاطف بعد قليل إلى الكلام لتقول: فلنبع البستان يا أبا عاطف.

قال أبو عاطف: هذا ما أفكر فيه. ولكن لا، لن نبيع البستان ودارنا هذه تقع فيه، بل نحن سنبيع الكرم. ما رأيك؟

قالت: رأيي أن تسرع في التنفيذ... بع الكرم واشترِ بثمنه العلوم لرأس عاطف. أسرع أسرع. لا تتأخر.

ونهض أبو عاطف متمتماً: لتكن مشيئة الله القوي القدير.

وأخذ يبحث عن الشاري: من للكرم يشتريه؟ فصاحب الكرم بحاجة قصوى إلى المال.

وطال بحث سعيد السماح عمَّن يشتري كرمه العامر.

وساعده في البحث والتفتيش جاره ناصر المرتضى.

ووفق ناصر حيث أخفق سعيد.

فهو قد وقع على من يشتري كرم الجار العزيز.

وكان الشاري الوجيه الثري شفيق نزار.

وشفيق رجل في الخمسين من العمر يتربع على قمة الغنى والجاه.

يملك مزارع عديدة في محافظة اللاذقية ومحالَّ عامرة في دمشق وبيروت وحلب وحمص وحماه واللاذقية.

وهو لم يرث ثروته عن والده بل وصل إلى تلك الثروة الطائلة بكد اليمين وعرق الجبين.

كان صاحب محل للأقمشة و«النوفوتيه» في اللاذقية قبل الحرب العالمية الثانية.

وكان قد استورد كمية من البضاعة لحسابه الخاص.

وما إن وصلت البضاعة حتى نشبت الحرب وارتفعت الأسعار.

فباع ما اشتراه بليرة سورية، بمئة، وتدفقت الأموال بين يديه.

فاشترى مزرعة في منطقة القسطل في محافظة اللاذقية، ثم أنشأ محلاً في دمشق، فإذا بالأموال الطائلة تتراكم في صندوقه العامر.

ووثب إلى بيروت ينشئ فرعاً لتجارته فيها، فازدهرت تجارته في العاصمة اللبنانية.

وأخذ يتنقل من دمشق إلى بيروت إلى اللاذقية.

ولم يكتفِ بما أنشأ من محال، فوثب إلى حلب ثم إلى حمص ثم إلى حماه.

إنه يريد أن يغزو جميع المدن السورية واللبنانية بتجارته الرابحة.

وازدهرت تجارته وازدهت، فعمد إلى شراء المزارع في سوريا.

شفيق نزار لم يعد يرضى بالتجارة بل هو سيثب إلى الزراعة.

سيكون مزارعاً ناجحاً كما كان تاجراً ناجحاً.

وبنى لنفسه قصراً يقضي أكثر أوقاته في ذلك القصر الفسيح الأرجاء العالي الأجنحة الشامخ المنيف.

وكان يعيش وحيداً، فما هناك زوجة ولا أم ولا أب ولا أخ ولا ولد.

ما هناك سوى الخدم الذين يشرفون على القصر.

ويقومون على خدمة صاحب القصر.

ورضي شفيق نزار عن دهره الباسم الوضاح الجبين، وقد جاد ذلك الدهر عليه بكل ما يشتهي ويروم.

وماذا يشتهي شفيق؟ وماذا يروم؟

يشتهي الغنى وقد أصبح غنياً.

يروم المال وقد تدفق المال بين يديه على ثورة وجنون ونعم من الحياة بكل ما تمنّى.

وانصرف إلى الإشراف على محاله وتجارته ومزارعه على راحة وهناءةٍ واطمئنان.

وأصبح خبيراً في الأمور الزراعية، مثله في الأمور التجارية. فهو يعرف أن هذه التربة تصلح لزراعة القطن، وتلك تصلح لزراعة القمح.

ويعرف أن ذاك البستان يساوي عشرين ألف ليرة سورية، وذلك الكرم لا يساوي أكثر من عشرة آلاف.

لقد أصبح على اطلاع واسع في جميع الأمور الزراعية.

ويوم جاءه ناصر المرتضى عارضاً عليه شراء كرم جاره سعيد السماح التفت شفيق إليه، إلى ناصر ليقول: كم يريد جارك ثمن الكرم؟

قال ناصر: لا أعلم. كل ما أعرف إنه بحاجة إلى المال وأنه عازم على بيع كرمه.

وابتسم شفيق: إن يكن سعيد السماح بحاجة إلى المال فهو سيبيع الكرم بأبخس ثمن.

والتفت إلى ناصر مرتضى ليقول: إنني أشتري كرم جارك إذا كان سعره مناسباً.

فأدرك ناصر المرتضى ما يرمي إليه شفيق.

إنه يريد اغتنام الأزمة التي يتخبط فيها جاره سعيد السماح ليشتري كرمه بالثمن البخس.

قال: سأنقل إليه الأمر. قد يكون السعر مناسباً أيها السيد شفيق.

وطار أبو هند إلى جاره سعيد معلناً له استعداد شفيق نزار لشراء الكرم إذا كان السعر مناسباً.

وأسرع الاثنان، ناصر وسعيد، إلى قصر شفيق نزار.

وبادرهما شفيق بقوله: كم يساوي الكرم؟

قال سعيد السماح كرمي يساوي عشرة آلاف ليرة سورية، يا سيدي. فهو واسع الأطراف شاسع بعيد المدى، إلا أنني مضطر إلى بيعه لأوفر العلم لابني. ثمانية آلاف تكفيني.

فابتسم شفيق نزار، وهدر: لن أدفع لك إلا خمسة آلاف. هل ترضى؟ إذا رضيت بالثمن فعد إلي غداً لأحرر لك حوالة بالمبلغ الرجيج.

وصمت أبو عاطف، وطال به الصمت. إنه يفكر. هل يبيع الكرم بخمسة آلاف ليرة سورية وهو إرث والده.

الإرث الذي يعتز به ويفتخر؟.. إنه لعلى يقين أن الكرم يساوي عشرة آلاف ليرة سورية يومذاك «والآلاف العشرة من الليرات السورية تساوي اليوم أكثر من عشرين ألف دولار».

إلا أن شفيقاً لن يشتريه بسوى خمسة آلاف. ما العمل؟ هل يبيعه بخمسة آلاف؟..

وعاد شفيق نزار إلى الكلام ليقول: على ماذا عزمت؟ هل تبيع الكرم بالآلاف الخمسة؟..

قال سعيد: رضيت بالثمن، هات المبلغ.

قال: حرّر لي الصك فأحرر لك الحوالة.

وتمت المعاملة . . .

وتقاضى سعيد السماح خمسة آلاف ليرة سورية ثمن كرمه.

وطار إلى ولده عاطف ليقول: استعد للرحيل يا عاطف. غداً مع مطلع الفجر البعيد ستسافر إلى اللاذقية للدخول إلى المعهد العالي.

ودهش عاطف . . . وكاد يعلن عزمه على الرفض.

كاد يقول لوالده: «أنا لا أريد السفر إلى اللاذقية. لا أريد الابتعاد عن كسب. أريد أن أظل هنا. هنا قرب هند. لن أبتعد عن هند، يا والدي. لن أبتعد عنها».

كاد يبوح لوالده بما يختلج في قلبه من سعير الهوى ولهيب الغرام.

إلا أنه اعتصم بالرصانة والصمت والوقار.

ووثبت أمه إليه تضمه إلى صدرها، وتمعن في تقبيله وتذرف الدمع الغزير.

فراق عاطف صعب عليها، فهو لم يبتعد عنها. لم ينزح عن الدار قط. كيف ستستطيع البعاد عنه بعد أن عاشت قربه ثلاث عشرة سنة دون أن يغيب عن عينها يوماً واحداً؟

وانصرفت الأم إلى إعداد معدات السفر.

فراحت تجمع ثياب وحيدها وتبكي . . .

وطار عاطف إلى حبيبته هند والدمعة في عينيه.

وأمسك بيدها، وقادها إلى الغدير، إلى هناك، إلى الحرج الوارف الظلال حيث كانا يجتمعان دائماً.

ووقف يقول لها وقد ظللتهما أغصان الحرج الوارفة الخضراء: هند. سأبتعد عنك. والدي عزم على إدخالي إلى المعهد العالي في اللاذقية. مع مطلع فجر غد، سأشد الرحال إلى اللاذقية يا هند.

ووجمت هند . . . واضطربت، وقلقت.

وأخذت ترتجف: ماذا يقول عاطف؟ أيكون جاداً في ما يقول؟ أينأى عنها؟ أيبتعد عن عينيها؟ أيغيب عن كسب؟

وهل تستطيع أن تعيش بعيدة عنه؟. هل يمكن هذا؟. لا. لا لا مستحيل مستحيل . . .

وساد الصمت بينهما: وطالت وقفتهما في صمتهما العميق.

وإذا بعاطف يضم هند إلى صدره ليقول: لن أغيب عنك طويلاً يا هند. لا، وحياة عينيك، لن اغيب طويلاً. ثلاثة أشهر فقط وأعود لتمضية عطلة القسم الأول من العام المدرسي هنا قربك. كل ثلاثة أشهر أعود إليك، إلى أن ينتهي العام المدرسي وأعود لأقضي فصل الصيف بكامله هنا قربك. لن أغيب عنك الأشهر الثلاثة بسوى الجسد، الجسد فقط سينأى عنك أما روحي فستظل هنا، هنا في

كسب تحنو عليك وترفرف حولك وتغمر قلبك بالعطف والشوق والحب والحنين.

وحاولت هند الكلام فما استطاعت. لقد خنقتها العبرات.

وعصف الألم العميق في قلبها الهائم الولوع.

وعاد العاشقان الفتيّان ليغرقا في صمتهما ودموعهما.

واستطاعت هند أن تتكلم بعد صمت طويل، فقالت وهي تمسح دموعها: عاطف، أنت ستنساني في اللاذقية. لن تفكر في هند. ستشغلك حسان اللاذقية عني. سيصرِفْنَكَ عن التفكير في حبيبتك. سأخسرك، سأخسرك يا عاطف.

فابتسم عاطف.

يا لظنون المرأة وشكوكها. إنها لا تفكر في نفسها، إلا في حبها ومصير حبها...

وهمس عاطف في أذن هند: يا مجنونة يا هند. هل هناك امرأة في العالم تستطيع أن تصرف عاطفاً عن التفكير في حبيبته هند.

قالت: أنت الآن هنا قربي. تنطق بما يختلج في قلبك. وتقول ما تمليه عليك عواطفك المتقدة السعير. ولكن من يدري ماذا ستقول وقد نأيت عني وبعدت عن كسب وتبدلت في قلبك العواطف والأشواق؟!

قال: إن عواطفي لن تتبدل يا هند. الحب لا يزول ولا يتبدل له لون. لونه ثابت قوي.

قالت: العواطف، عواطف الإنسان كالحرباء، تتلون بألف لون ولون. فهي لا تستقر على حال يا عاطف. عواطف الإنسان تتبدّل بتبدل الزمان والمكان. ألا ترى المهاجرين الذين يغادرون بلادهم؟ إنّهم يسافرون إلى المهجر القاصي البعيد، والعواطف تثور في نفوسهم والحنين يغمر قلوبهم والأشواق تحل في صدورهم على نار ولهب، حتى إذا استقروا هناك تبدلت العواطف في نفوسهم، فهم يعدون الأهل بالمراسلة، ويبرون بالوعود فور وصولهم إلى ديار المهجر، فيسطرون الرسائل الطوال إلى الأهل والأصحاب، ثم تبدأ تلك الرسائل بالانقطاع رويداً رويداً إلى أن تنقطع نهائياً. وتكون عواطفهم قد تحجرت حيال الأهل والوطن، تكون العاطفة قد تحولت عن وطنهم إلى غربتهم.. والأم التي يموت ابنها، من يشاهدها في حزنها وآهاتها ودموعها ولوعاتها يخيل إليه أنها لن تنسى الولد المدفون في التراب أبداً أبداً. حتى إذا مضى عام، عام واحد فقط ولا أقول شهر، تراها قد نسيت.. نسيت؟ لا فهي لا تنسى أن هناك قطعة من كبدها في التراب إلا أن عواطفها تتبدل وحسها يتغير.. والحبيب الذي ينأى عن حبيبته. أنت مثلاً يا عاطف. إنك تنطق بالصدق الآن، وأنت تعلن أن ليس ثمة امرأة في العالم تستطيع أن تصرفك عني. أنت الآن تقول ما يجيش في قلبك، تنطق بما تقوله عاطفتك. ولكن من يدري ماذا

ستقول لك تلك العاطفة وقد نأيت عن كسب. أنت نفسك لا تستطيع أن تعلم.

قال عاطف وقد أمسك بيد حبيبته: هند. العاطفة البشرية كالبحر، مد وجزر، حيناً في مد وحيناً في جزر إلا أنها ثابتة لا تتغير، صامدة لا يتزعزع لها كيان. قد تنقص العاطفة في قلب الإنسان يا هند، وقد تزيد، إلا أنها لا تزول. وعاطفتي نحوك يا هند صامدة في قلبي كصمود هذه الجبال، متينة كمتانة هذه الصخور، قوية كقوة هذه الأرض، عذبة كعذوبة هذا الغدير. لا تخافي على حبك في قلب عاطف، وحياتك، وحياتك عندي، لن التفت إلى حسناء غير هند.

قالت: ولكن الحسان كثيرات في اللاذقية يا عاطف، لا بد من أن تقع بينهن على حبيبة جديدة وتنسى هند.

فابتسم ليهمس في أذنها: يا مجنونة. أين سأرى الحسان وأبواب المعهد مطبقة علي. سأكون في المعهد العالي «داخلياً» أدرس وآكل وأنام في المعهد. لن يسمح لي بالخروج منه حتى انقضاء الفصل المدرسي للعودة إلى كسب.

فارتاحت هند وعاطف يطمئنها إلى أنه لن يستطيع الخروج من المعهد. الحمد لله! لن تكون له الفرصة للالتفات إلى فتاة غيرها. وعادت إلى الاطمئنان وهي تهمس: عاطف. حبيبي.

وشد يدها ليتمتم: يا حياة عاطف يا هند.

قالت، وقد بدأت تستعيد رباطة جأشها: هل ستذكرني يا عاطف؟ هل ستفكر في هند؟..

قال: الأجدر أن تسأليني: «هل يمكنك أن لا تفكر في هند؟» أنا لن أنساك دقيقة واحدة. خيالك سيظل أمام عيني وطيفك لن ينأى عن خيالي. وأريد منك أن تذكريني كما أذكرك، وأن تحني إلي كما أحنّ إليك. أريدك على زيارة هذه الغابة من حين إلى آخر. إنها تذكرك بعاطف. ستشاهدين هذه الشجرة الكبيرة وتقولين: «هنا تحت هذه الأغصان الوارفة كنت أقف وإياه». وتنظرين هذا الصخر المتمرد العبوس وتقولين: «فوق هذا الصخر كنا نجلس»، وأنا لن أكتفي بذلك. لن أكتفي بالصخر وبالشجرة وبالأعشاب وبالغدير تذكرك بي، بل سأحفر اسمي هنا. هنا على هذا الصخر. اسمي؟ لا، اسمي واسمك. سنعود إلى هنا بعد الظهر، فأحضر إزميلاً ونحفر الاسمين على هذا الصخر.

وبعيد الظهر عادا إلى الغابة الخضراء.

وكان عاطف يحمل إزميلاً راح يمعن في تخديش الصخر به.

ولم يرجع عن الصخر إلا وقد حفر فيه اسمه واسم هند «عاطف وهند».

إلا أن هند رأت أن تضيف جملة صغيرة إلى الاسمين.

قالت: أحفر هذه الكلمات تحت الاسمين يا عاطف «معاً إلى الأبد».

ونزل عند رأيها فحفر الكلمات الثلاث تحت اسمها واسمه وكانت هذه الجملة: «عاطف وهند معاً إلى الأبد».

وانحنى عاطف على الصخر يقبله بخشوع.

إنه يقبل الكلمات التي حفرها.

ووثبت هند إلى الصخر تفعل فيه ما فعل عاطف.

تطبع على الكلمات قبلة مقدسة بيضاء.

وابتسما... بل ضحكا.

ثم أمسك بيدها وراح يطوف بها أرجاء الغابة الوارفة الظلال.

ولم ينفصل الحبيبان إلا وقد تدحرجت الشمس وراء الأفق البعيد.

وبدأت جيوش الظلام تزحف إلى تلك البطاح لتغمرها بوشاحها القاتم السواد.

وعاد عاطف إلى دار أهله، وعادت هند إلى دار ذويها.

ولم يغمض لأحدهما جفن طيلة ذلك الليل.

فقد استلقى عاطف في سريره يفكر بما سيكون في الغد.

يفكر في رحيله عن كسب وابتعاده عن هند.

ترى هل يقوى على البعاد عن حبيبة قلبه وروحه؟

هل يستطيع أن يبتعد عنها ثلاثة أشهر متوالية، وهو الذي كان يراها مراراً عديدة في اليوم الواحد؟

وأدرك أن الأمر على صعوبة شديدة. عاطف السماح لن يقوى على الصمود.

إن هو رحل عن كسب فقلبه سيظل فيها وروحه سترفرف بين حناياها...

وارتمت هند في سريرها لتبلل الوسادة بدموعها.

كانت تجهش بالبكاء فترفع اللحاف فوق رأسها لتمنع وصول الأنات إلى مسمع والديها.

وكلما فكرت في الغد ازدادت عويلاً ونحيباً وبكاء.

عاطف سيبتعد عنها. لن تراه في الصباح ولن تسير وإياه إلى الغدير، ولا هو سيمسك بيدها ليقفز وإياها من ربوة إلى ربوة ومن تلة إلى تلة ومن صخر إلى صخر...

وما إن بدأت مواكب الفجر تغمر منطقة «القسطل» في محافظة اللاذقية بأنوارها الوردية حتى كانت هند تقفز من سريرها لتطل إلى الشرفة تراقب شرفة دار جيرانها.

ودهشت وقد شاهدت حبيبها عاطف يجلس أيضاً على شرفة دارهم واجماً ينظر إلى الأفق البعيد المخضب بألوان الفجر السحيق.

وكأنه يحدق في صفحة الأمل وبيداء الرجاء.

ونادته هامسة: «عاطف! عاطف».

وحمل نسيم الفجر العليل إلى مسامع عاطف صوت الحبيبة هند.

والتفت عاطف إليها متمتماً: هند؟ ماذا تفعلين في هذه الساعة المبكرة من الفجر على الشرفة؟

قالت: أتسألني ماذا أفعل؟ سل نفسك. ماذا تفعل أنت نفسك على الشرفة في مثل هذه الساعة؟

قال: أفعل ما تفعلين أنت. أفكر في ما سيكون في الغد يا هند.

فأخفت وجهها براحتيها وأجهشت بالبكاء...

وفي الصباح عندما حمل عاطف حقيبته وسار وراء والده إلى السيارة، هرولت هند إليه مسرعة منادية: عاطف عاطف عاطف!

وتوقف عاطف عن المسير، والتفت إليها.

فإذا بها تثب إليه حاملة له منديلاً مطرزاً لتقول: عاطف، هذا المنديل طرّزته بيدي. إنه هديتي للذكرى إليك. أتذكرني يا عاطف كلما حملت هذا المنديل بيدك.

ودمعت عيناه، ورفع المنديل إلى شفتيه يقبله، وينشق منه عبير هند وأريجها الفواح.

واستقل السيارة مع والده، فانطلقت تطوي بهما الطريق إلى اللاذقية.

ووقفت هند تشيع قلبها مع حبيبها.

وتمسح دموعها الغزيرة المنسكبة على وجنتيها كحبات اللؤلؤ الثمين.

الفصل الثاني

تهادت الرسائل بين عاطف وهند. وكانت الرسالة الأولى التي تسلمتها هند بعد رحيل عاطف عن كسب بثلاثة أيام.

حملها ساعي البريد إليها فأمسكت بها تقبلها وتذرف الدموع الغزيرة.

وحملتها وطارت بها إلى الغابة الخضراء الوارفة الظلال لتجلس هناك فوق الصخرة المتواضعة الصماء حيث حفر عاطف اسمها واسمه، تفض الرسالة المغمورة بالشوق والحنين وتقرأ:

«حبيبتي هند!... وصلت إلى اللاذقية وحللت في معهد الفرير. وكان أول ما فعلت هو كتابة هذه الرسالة إليك. لقد شعرت هنا، وقد نأيت عنك، بأنني فقدت قسماً من روحي.

شعرت بأنني خسرت شطراً من قلبي. إنني أحس بوحشة مظلمة بكماء خرساء عمياء يا هند. أحس بالظلام يغمر حنايا قلبي، وقد كنت أنت النور الذي يطرد من قلبي الظلام.

إنني غريب هنا. فأنا لم أتعرف بعد على الزملاء. ألتفت

حولي فلا أرى إلا وجوهاً لا أعرف أصحابها. وأفتش عنك، عن عينيك الحالمتين وعن ثغرك الباسم وعن جبينك الصبيح المرفوع، أفتش فلا أراك.

وأغمض عيني فأرى روحك الحنون ترف حولي، وتبعث الأمل في قلبي والحنين في فؤادي. وأعود بالذكرى لأذكر جلساتنا على ضفاف الغدير وغدواتنا إلى الكرم والحرج والبستان.

إنني أعيش بالخيال الآن، أعيش بالذكرى، أعيش ببقايا سعادتي يا هند. وأنظر إلى المستقبل، إلى يوم اللقاء، إلى ما بعد ثلاثة أشهر فأرى المسافة شاسعة، والوقت بعيداً بعيداً جداً، لا تحده عين ولا يصل إليه بصر. فأعدو وأركض وأتمنى لو أن الأيام والليالي تركض وتعدو معي لأصل إلى يوم اللقاء البهيج. أذكريني يا هند. أذكريني كلما مررت بالغابة الخضراء. أذكريني كلما وقع بصرك على اسمينا المحفورين على ذلك الصخر الأصم. أذكريني وأنت تجلسين قرب الغدير وتشنفين أذنيك بألحانه الشجية الخالدة.

كيف أحوال الكرم والبستان والأزهار والطيور يا هند؟ «سلمي لي» عليها واسلمي في قلبي إلى الأبد ـ عاطف».

ودمعت عينا هند وهي تتلو رسالة الحبيب.

وأسرعت إلى القلم والقرطاس تخط رسالتها إلى عاطف الحبيب:

«حبيبي عاطف!... ما كانت رسالتك العصماء إلا لتثير الشوق في قلبي إليك وتبعث الحنين إلى روحي وتستفز الدموع من عيني، وقد بسطت لي حالك المؤلمة في المعهد.

وحالي ليست بالفضلى يا عاطف وقد نأيت عني وتواريت عن عيني.

إنني أقضي النهار في ذكراك. كل شيء هنا يذكرني بك. الطيور والزهور والحقل والكرم والفأس والمنجل والمحراث.

أما الليل فأقضيه في سهاد أناجيك وأحن إليك. وإذا ما أغمضت عيني أراك في الحلم، ويخيل إلي أن الحلم حقيقة.

وأستفيق لأجدني أقبل الوسادة المبللة بدموعي.

السهل والوادي والحرج والغدير والغابة تسلم عليك.

وتسألني عنك فتقول لي: «أين هو عاطف؟ لماذا لا أراه وإياك يا هند؟ وما كان ليبتعد عنك دقيقة واحدة؟».

وأحتار بماذا أجيب. وأكتفي بإفساح المجال لدموعي تجيب عني.

وتفهم الغابة والغدير والوادي لغة دمعي فتشاركني الدمع وتشاطرني اللوعة والحنين. وتقيم، مثلي، أبداً على انتظار، انتظار عودتك بفارغ صبر.

أذكرني يا عاطف. أذكرني كما أذكرك. تكفيني منك الذكرى. يكفيني الأمل. يكفيني الخيال. وقد خسرت الحقيقة في مرآك. وأسلم يا حياة هند»

وطارت رسائل هند من كسب إلى عاطف في اللاذقية.

وتهادت رسائل عاطف من اللاذقية إلى هند في كسب.

واكتفى العاشقان من حبهما بالرسائل.

وعادت السعادة لتغمر القلبين الهائمين من خلال الأسطر القليلة المخطوطة على الورق كأنها الجراح في القلب والخدوش في الوجه والنجوم في صفحة السماء.

وانقضت الأشهر الثلاثة كما تنقضي جميع الشهور، على سرعة واندفاع.

وطار عاطف السماح من المعهد إلى كسب فاتحاً ذراعيه لحبيبته هند.

وعادت أغصان الغابة الوارفة تبسط ظلالها على العاشقين لتحجبهما عن كل عين وبصر. ونعما باللقاء.

إلا أن لقاءهما لم يطل.

فقد انقضت العطلة المدرسية على سرعة واندفاع.

وإذا بعاطف يودّع هند ليعود إلى المعهد في اللاذقية.

وتعود الرسائل إلى الانطلاق من اللاذقية إلى كسب، ومن كسب إلى اللاذقية حاملة بين حناياها عواطف الحبيبين الفتيّين وأشواقهما ودموعهمان وحبهما وحنينهما...

وانقضى العام المدرسي.

فأسرع والدا عاطف إلى معهد الفرير ليشاهدا تفوق ولدهما.

وكان عاطف يتربع بين رفاقه على قمة النجاح.

حب هند لم يصرف عاطفاً عن دروسه.

فقد استطاع أن يكون في مقدمة الرفاق.

وتحققت نبوءة أستاذه في كسب، أبي إبراهيم.

لقد كان عاطف من الذكاء والاجتهاد والمواهب في القمة العالية.

ويوم عاد إلى كسب حاملاً الشهادة المدرسية التي تنطق بتفوّقه صراحة، أقام له الوالد الكريم حفلة ساهرة في داره المتواضعة، احتفاء بالتفوق الذي حازه خلال العام المدرسي.

وكانت هند في مقدمة المدعوين.

فجلست مع والدها ووالدتها يشاركون الجيران الفرحة الطلقة والسرور العميق...

وقضى عاطف فصل الصيف مع هند بين الغابات والأحراج والكروم والبساتين.

ومع انقضاء فصل الصيف، وبزوغ الخريف، ودّع عاطف السماح حبيبته هند.

وزم حقائبه عائداً إلى المعهد لينصرف إلى الدرس وإلى اقتباس العلوم.

وإلى تسطير الرسائل الملتهبة إلى هند، يبثها فيها كل ما في قلبه من نار وهيام...

وعادت هند إلى الانتظار، الانتظار الممض الموجع الطويل.

إنها لتنتظر انقضاء القسم الأول من العام المدرسي لتحظى بمشاهدة الحبيب الممعن في النوى والبعاد.

وانقضت الأيام سريعا... ومضت السنون...

اربع سنين انقضت كومضة في الفضاء.

تماما كما تمضي السنون في حياة الإنسان على هذه الأرض المغمورة بالأحاجي الغامضة وطلاسم الأسرار.

وأنهى عاطف دروسه الثانوية ليتقدم من الامتحانات الرسمية توصلاً للحصول على الشهادة العليا...

وتقدم إلى الامتحان.

وأقام والداه يرقبان النتيجة بوجل وخوف.

ترى هل يرسب عاطف في الامتحان أم يكون نصيبه النجاح؟

ولم تكن حال هند في الانتظار، انتظار نتيجة الامتحان خيراً من حال أم عاطف وأبيه.

فقد كانت على قلق واضطراب.

إنها لترقب النتيجة على حمم ونار:

ترى هل يفوز عاطف بالشهادة أم أنه يخيّب الآمال؟

ولم يطل الانتظار فقد طار عاطف السماح إلى كسب حاملاً البشرى.

لقد فاز بالشهادة المرجوة بتفوق كبير...

وفتحت هند له ذراعيها ذارفة الدموع.

إن تلك الدموع لتختلف الاختلاف التام عن تلك التي ذرفتها يوم الفراق.

تلك كانت دموع الألم والحنين؛ أما هذه فهي دموع الفرح والابتهاج..

وأمسك عاطف، حامل الشهادة العليا بيد حبيبته هند وطار بها إلى الغابة.

تماماً كما كان يفعل منذ عهد الطفولة.

وجلسا على الصخرة الناتئة، الباسمة وهما في نشوة وانطلاق. وألقت هند برأسها على صدر عاطف وكأنها تريد أن تلقي بهمومها كلها وتنسى العالم بأسره.

وهمست: عاطف! لم اكن لاؤمن بانك ستعود إلي. لا. لقد خيل إلي انني فقدتك. خيل إلي أن اللاذقية ستسلبني عاطفاً فكرهت اللاذقية وابغضت كل من وما فيها. أما اليوم وقد عدت إلي فقد توارى الحقد من قلبي. الحمد لله. الحمد لله على عودتك إلي بالسلامة يا حبيبي.

قال عاطف: هند! . . لن نفترق بعد اليوم يا هند أبداً أبداً أبداً. سنظل معاً حتى الموت، حتى الموت؟ لا. حتى بعد الموت. تماماً كما حفرنا على هذه الصخرة: «عاطف وهند معاً إلى الأبد».

فاقتربت منه على حنين في الهوى، وهمست: هكذا أريد أن أظل قربك يا عاطف. هكذا لا أريد أن أفترق عنك يا حبيبي إلا لأذهب إلى القبر.

واغمضت عينيها، وكأنها تريد أن تستأثر بأحلامها الوارفة العذاب.

وأطبق عاطف على أذنيها هامساً: الآن سأبحث عن عمل. عمل أستطيع بواسطته تأمين السعادة لك. سأبحث عن وظيفة يا هند، وما إن أحصل على الوظيفة المرجوة حتى أتقدم من والديك المحترمين طالباً يدك، ثم نتزوج وتنتقلين من دار والد هند إلى دار زوجك عاطف السماح.

ومضت في إغماض عينيها.

وهمست شفتاها: «زوجي. . زوجي عاطف السماح؟ يا للحلم الرائع الفاتن الجميل».

والتفتت إلى عاطف لتقول: لقد سئمت الانتظار يا عاطف. لا أريد أن أنتظر بعد اليوم. قد يطول البحث عن الوظيفة. لماذا لا تطلبني اليوم من والدي؟

قال: هند! إنني أنظر إلى المستقبل البعيد. أريد أن أضمن لك السعادة. أريدك سعيدة يا هند. أريد أن تقبض يدي على المال لأنثره بين يديك تنفقينه كما تريدين. لن نتزوج إلا وقد وقعت على وظيفة أؤمن من خلال مرتبها عيشنا الرغيد. أريدك سعيدة، سعيدة، سعيدة يا هند.

قالت: سأكون سعيدة ما دمت قربك يا حبيبي. سعادتي هي أنت. حيث تكون معي تكون السعادة. أنا لا أطمع من دنياي بسوى العيش قربك. بسوى النظر إلى عينيك. سأكون سعيدة يا عاطف ما دمت أفتح عيني لأراك قربي في الصباح، وأقيم في الدار أرقب عودتك في المساء. أنت سعادتي وأملي وحلمي وحياتي. أنت أنا، يا روح هند.

قال عاطف: لسعادة الحب ذيول يا هند. وكثيراً ما تكون ذيول السعادة أشد سعادة من السعادة نفسها. ومن ذيول السعادة المال. . . أنا أريد أن أنفحك بالمال، لا لتشتري به السعادة، والسعادة لا تشترى بالمال، بل لتسدّي به النفقات الضرورية في الحياة. سأكون أشد سعادة عندما أعود في آخر كل شهر إلى البيت لأنفحك بمرتبي وأقول: «خذي هذا من عرق جبيني أنفقيه كما تريدين يا هند». . مهلاً مهلاً، لن يطول بحثي عن الوظيفة، فأنا أحمل الشهادة العليا، والشهادة كفيلة بجذب الوظيفة. سأعود إلى اللاذقية أبحث عن عمل، حتى إذا وجدت ذاك العمل عدت إلى هنا لأخطبك وانصرف إلى تهيئة معدات العرس.

قالت: لا أستطيع الانتظار، وقد طال انتظاري. لا أريد أن أبتعد عنك دقيقة واحدة بعد اليوم، وقد طال بعادي عنك سنوات أربع قضيتها في العذاب والدمع والاشتياق.

قال: من صبر أربع سنين يستطيع الصبر أسابيع قليلة. عاطف لن يضيع منك ولا أنت تضيعين منه. عاطف لهند وهند لعاطف.

واستطاع أن يقنعها، وقد رسم لها خطة المستقبل القريب.

قال: لن نقيم هنا في كسب إلا مدة الصيف فقط. أما في الشتاء فسنقيم في اللاذقية. وإن لم يكن في اللاذقية ففي دمشق حيث سيكون مقر عملي. سأستأجر لك داراً صغيرة تكون عشاً لغرامنا، وأنثر في الدار فاخر الأثاث ورائع الرياش لتليق بك يا هند.. مهلاً يا حبيبتي. أحلامنا ستتحقق كلها وآمالنا سيكون مصيرها التحقيق.

وبكت وألقت رأسها على صدره العامر لترسل أنة حرّى وتغمض عينيها وتهمس: ليكن ما تريد، ليكن ما تريد يا حبيبي.

وودعها...

وأسرع بالعودة إلى اللاذقية باحثاً عن وظيفة تليق بحامل الشهادة، الغارف من معين العلوم على دفقة وإكثار.

واقامت هند ترقب تحقيق الآمال والأحلام.

اقامت ترقب عودة عاطف من اللاذقية بالبشرى السارة.

كانت تنتظر عودته مبتسماً متمتماً: «هند، لقد وقعت على وظيفة محترمة. تعالي معي لنستأجر الدار ونبدأ بتأثيثها»، إلا أن امالها لم تتحقق، وأحلامها العذاب تبخرت هباء منثوراً في الفضاء.

فقد عاد عاطف.

إلا انه لم يعد بالبشرى.

بل جاء ليعلن لها أنه لم يستطع إيجاد العمل المنتظر. فالعهد ذاك عهد الانتداب الفرنسي.

الأبواب كلها سدت بوجهه.

لم يكن ثمة من يفتح له باباً، وهو لا يحمل أي شهادة في الاختصاص.

فلا هو مهندس، ولا هو كيميائي ولا هو مترجم ولا محاسب ولا صناعي ولا محامي ولا طبيب.

وسوريا مثل لبنان، ومثل جميع البلدان العربية ملأى بحملة الشهادات أمثاله.

وليس ثمة وظائف شاغرة لا في الدولة ولا في الشركات لهؤلاء البؤساء الذين أضاعوا زهرة العمر في الركض وراء الشهادات العلمية المتعددة الأسماء.

ولو وعى شبابنا لسعى إلى الاختصاص.

الاختصاص في الزراعة، الاختصاص في «الميكانيك»، الاختصاص في الصناعة، الاختصاص في التجارة..

بلادنا تفتقر إلى مثل هؤلاء الفنيين الاختصاصيين.

والشركات والدوائر الحكومية تبحث عنهم حتى إذا يئست من الوقوع عليهم لجأت إلى الأجانب تستعين بهم على فض مشاكلها والقيام بأعمالها.

ويتربع الأجانب على قمة الغنى الفضفاض الرحيب، بينما شبّاننا يتسكّعون في الشوارع والأزقة عاطلين عن العمل متشردين.

وطال بحث عاطف السماح عن الوظيفة دون جدوى.

كان يقضي أيام الأسبوع بين اللاذقية وحلب ودمشق وكسب، يطرق الأبواب ويطوف على الشركات ويتسلل إلى الدوائر باحثاً عن عمل.

إلا أنه يعود على يأس وألم وخيبة أمل.

وضاق ذرعاً بحظه التعس.

ووثب إلى هند يقول: هند لن أعود إلى كسب إلا وقد أصبحت موظفاً. قد يطول غيابي عنك. لا بأس. صبراً يا حبيبتي لا بد للغمامة السوداء من الانقشاع، ولا بد للحظ من البزوغ بعد طول المغيب.

فبكت هند وتوسلت ـ: رحماك يا عاطف لا تبتعد عني. إبق هنا قربي. سنعيش كما عاش والدانا. نزرع أرضنا ونأكل رغيفنا بعرق الجبين. لن تبخل الأرض علينا بعطاياها. لقد كان التراب

أبداً على سخاء في العطاء. إنه يعترف بالجميل. فإذا ما حرصت على الاهتمام به أعاد اهتمامك خيرات وأموالاً. لا تسع وراء الوظيفة يا عاطف، والوظيفة ما كانت يوماً لتشبع جوعاً ولا لتروي عطشاً ولا لتحقق أملاً. خير لي ولك أن نظل هنا حيث نشأنا وترعرعنا ونعمنا بهوانا، وجنينا أمانينا العذاب.

فابتسم، وتمتم: أتريدينني على البقاء هنا لأصبح فلاحاً؟.. ولماذا دخلت إلى المعهد العالي وسعيت وراء العلوم وأضعت الوقت والمال إذاً؟ لا يا هند لا، أنا لن أكون عاملاً، لن أكون فلاحاً، لن أسقي الأرض عرق جبيني ولا التراب دماء قلبي. لن أعيش هنا، كما عاش والدي ووالدك، فقيراً بين الفقراء جائعاً بين الجائعين. الوظيفة هدفي وسأنال هدفي في العاجل الوشيك.

وحاولت المضي في المناقشة. حاولت إقناعه بصواب رأيها، إلا أنه أبى عليها الكلام.

فقام يودّعها ويسرع بالهرب...

ووقفت هند تشيعه بدمعة حمراء.

وكأنها تشيع آمالها وأحلامها وأمانيها العذاب.

* * *

انصرف عاطف السماح إلى البحث عن الوظيفة.

عاطف عزم على المضي في البحث حتى النهاية.

لقد وعد هند بألاّ يعود إلى كسب، إلا وقد أصبح موظفاً.

وسيبر بوعده لهند.

ومضى في عناده، وعاد إلى طرق الأبواب دون جدوى.

وطال بحثه دون أن يلوح لعينيه بصيص أمل.

ومضى شهر على إقامته في دمشق، شهر كامل لم يشاهد فيه هند، ولم تقع منه عين على والديه.

ثلاثون يوماً لم تطأ قدماه خلالها أرض كسب.

وبدأ الأمل يخبو في قلبه. بدأ اليأس يتسرب إلى صدره.

بدأت أنفاسه تضيق، وقد لاح له الهدف بعيداً كالسراب.

يراه ولا يستطيع الوصول إليه.

وإذا بالوميض يظهر فجأة، وميض من أمل ساطع وهّاج جميل.

فقد طرق ساعي البريد ذات صباح باب الغرفة التي يحتلها في الفندق الصغير في دمشق.

وخيّل إليه أن الساعي يحمل إليه رسالة من هند.

ليس ثمة من يعرف عنوانه في دمشق إلا حبيبته هند.

ولكنه أدرك أنه على خطإ، وقد شاهد اسم المرسل على الرسالة: «محال شفيق نزار ـ اللاذقية».

ودهش. . .

شفيق نزار؟ ماذا يريد منه شفيق نزار الغني الكبير الذي اشترى كرمهم منذ أربع سنوات؟.

وفض الرسالة على عجل، وأخذ يلتهم أحرفها بنهم واشتياق.

وكاد أن لا يصدق. قد يكون على خطأ.

لعل عينيه تخدعانه فيقرأ ما هو ليس في الرسالة.

وأعاد تلاوة الرسالة مراراً عديدة.

وفي كل مرة يزداد يقيناً أنه ليس في حلم.

يزداد يقيناً أن أماله تحققت بعد طول الانتظار.

وكانت الرسالة تقول: «حضرة الأستاذ عاطف السماح المحترم!. الرجاء تشريفكم محلنا في اللاذقية بالحضور فوراً لاستلام منصب مدير المحل. التوقيع: شفيق نزار».

والرسالة على اقتضابها طافحة بالبشرى والأمل والأماني.

وأسرع إلى اللاذقية وقلبه يعدو أمامه.

ووثب إلى محل، أو بالأحرى إلى محال شفيق نزار، وهي محال واسعة ملأى بالبضاعة الأجنبية والوطنية.

واستقبله موظفو المحال، وقد علموا من يكون، بالترحيب التام.

ووقف رئيس الموظفين ليقول: لدينا أوامر بتسليمك مهام المحال يا سيدي. يمكنك أن تباشر العمل فوراً، ريثما يحضر السيد شفيق غداً.

وازداد عاطف السماح حيرة ووجوماً.

فهو لم يستطع أن يفقه ما جرى: لماذا اختاره شفيق نزار ليكون مديراً لمحاله؟

ولماذا يطلب إليه البقاء في المحال ريثما يحضر صاحب المحال؟..

ومتى سيحضر شفيق نزار؟..

كل هذه الأسئلة كانت تتردد في خاطر عاطف السماح دون أن يستطيع الإجابة عن سؤال واحد منها...

وأقام على انتظار. إنه ينتظر حضور صاحب المحال بالسلامة.

وكان يقيم على قلق وحيرة واضطراب، وطال انتظاره أسبوعاً كاملاً كان خلاله يحضر كل يوم إلى إدارة المحال فيجلس في المكتب يشرف على الحسابات والأعمال بيقظة وانتباه.

وبعد أسبوع كامل أطل السيد شفيق نزار بطلعته البهية.

ووثب عاطف إليه يرحب به.

وابتسم شفيق لعاطف ابتسامة عميقة بعيدة الأثر لها ألف لون ولون.

وجلس ليقول للمدير الجديد: «لقد جاءني أنك تبحث عن عمل، وعلمت أنك من حملة الشهادات العليا وأنك ابن صديقي سعيد السماح، أخذت عن والدك الصدق والنبل والاستقامة. ولما كنت بحاجة قصوى إلى مدير أمين رصين نبيل شريف للأشراف على محالي فقد وقع اختياري عليك. سيكون مرتبك الشهري ألف ليرة سورية. هل يكفي المبلغ مرتباً لسعادة المدير؟

وصعق عاطف السماح للمفاجئة.

ألف ليرة سورية؟ ثم يسأله: «هل يكفي المبلغ؟».

أيمكن هذا؟ لقد كان يحلم في الحصول على وظيفة لا يتعدى مرتبه فيها الثلاثمئة ليرة سورية.

فإذاً بالله ينعم عليه بمرتب ألف ليرة.

هكذا دفعة واحدة. ألف ليرة؟ ومنصب مدير؟

يا لها من نعمة سمحاء لم يكن عاطف ليحلم بها في حياته.

وصمت عاطف حيال سؤال صاحب المحال.

كان يريد أن يقول له: «شكراً على معروفك يا سيدي».

إلا أن المفاجأة عقدت لسانه فلم يستطع النطق بحرف.

واستأنف شفيق نزار الكلام ليقول: أرجو أن تعير هذه المحال اهتمامك التام. ستكون مسؤولاً عن كل ما يجري فيها. إنك السيد المطلق هنا. لك أن تأمر والكل ينفذ أوامرك.

واستطاع عاطف أن يتمتم بعد جهد: شكراً يا سيدي.. شكراً.. شكراً.

ولم يكتفِ السيد شفيق بكل هذا. بل هو مد يده إلى جيبه ليخرجها قابضة على مبلغ ألف ليرة سورية.

ويقول: خذ. قد تكون بحاجة إلى المال. هذا مرتبك لهذا الشهر.

وبالرغم من أن عاطفاً كان بحاجة، ليس إلى ألف ليرة سورية، بل إلى ألف قرش، فهو قد رفض استلام المال.

وقال: أنا لن أتقاضى أجرة أتعاب لم أقم بها. سأتقاضى أجرتي في نهاية الشهر يا سيدي.

فأعجب شفيق نزار بنبل المدير الجديد وشهامته.

وانصرف ناعماً هادئاً مطمئناً.

وطار عاطف السماح إلى كسب والفرحة تملأ حنايا روحه.

سيحمل إلى هند البشرى السارة المفرحة.

ويدعوها إلى الاستعداد للخطوبة ثم للزفاف، فقد حُلّت المشكلة.

وهو قد ظفر بالوظيفة المرجوة. الحمد لله!

ووصل إلى كسب فأسرع إلى دار ذويه فرحاً.

وأطبق على يدي والده ووالدته يقبلهما، وهو يزف لهما البشرى السارة.

ثم أسرع إلى دار الجيران، إلى دار ناصر المرتضى.

ودهش وهو يرى الأسى مرتسماً على جبهتي والد هند ووالدتها بالرغم من اليسر الذي كان يظهر على الدار في إبدال أثاثها القديم بأثاث جديد. وسألهما كعادته: هند؟.. أين هند؟

فنظر ناصر المرتضى إليه ببلاهة وكأنه يقول له: ألا تعلم؟.. ألم يصلك الخبر؟

واشتد به الذعر. وأعاد السؤال: أين هند؟

وتمتمت الأم، أم هند بألم: العقبى لك أيها السيد عاطف، هند تزوجت...

فصعق...

وخيل إليه أنه في حلم.

ماذا يسمع؟

هل يمكن هذا؟.. كيف تتزوج هند وتعبث بعهودها ووعودها.

وتطعن قلبه في الصميم؟

مستحيل مستحيل. هند لم تتزوج.

أمها تكذب. هند لم تتزوج. لم تتزوج هند.. وشاهده ناصر المرتضى في وجومه وحيرته وقلقه واضطرابه، فأشفق عليه.

واقترب منه يمسك بيده مؤاسياً ليقول: هند تزوجت يا ابني. كنت أعلم كل شيء. كلنا كنا نعلم أي هوى وثيق متين يربط بين قلبيكما. وكم كنا نود أن تكون أنت عريس هند يا عاطف إلا أن للظروف أحكاماً لا يمكن نقضها، وللقدر كلمة لا يمكن ردها. فقد حكم القدر على هند بالزواج. وتزوجت، لا تفكر فيها بعد الآن يا ابني. لم تعد هند لك. إنها لزوجها. إنها لبيتها وستكون لأولادها.

وشعر عاطف السماح بالوهن.

شعر بالعبء الشديد.

وكاد يسقط فأسند كتفه إلى الحائط، إلا أن ذلك لم يمنعه السقوط، فسقط على مقعد وثير جديد وهو يتمتم: تزوجت؟.. تزوجت؟.. تزوجت.

وأسرعت أم هند إليه مؤاسية، وأسعفته بالمياه وبالمنعشات فاستعاد قواه.

وتمتم: من هو زوجها؟.. أريد أن أعلم ممن تزوجت هند؟ من هو ذاك الذي سلخها عني؟ من هو؟ من هو؟

فتمتم الاثنان معاً، والد ووالدة هند، إنه شفيق نزار.. شفيق نزار هو زوج هند يا عاطف.

فوجم، واضطرب.

وأنَّ، وهو يكاد لا يصدق ـ «شفيق نزار؟..».

واتضح أمامه كل شيء. كل شيء. شفيق نزار جاد عليه بالوظيفة في حين سلبه حبيبته.

لا للمجرم السارق السفّاح... وانفجرت الثورة في صدره.

شفيق نزار صرع قلبه، حطم سعادته، سلبه حبيبته.

الانتقام!.. الانتقام من شفيق نزار..

وظهر الغضب في عينيه لهيباً مرعباً مخيفاً.

ووثب عن مقعده كالمجنون.

وخرج من دار ناصر المرتضى وهو يعدو إلى قصر شفيق نزار الجاثم في المزرعة القريبة الهانئة المظللة بوارف الأغصان.

واقتحم حديقة القصر على ثورة وجنون.

لم يكن يعلم ماذا يفعل ولا ماذا يقول.

كان يولول: «هند!.. هند!.. هند!..».

وتصدى له خدم القصر، وحاولوا إبعاده عن الحديقة، إلا أنهم عجزوا.

لقد كان في ثورة لاهبة صاخبة عاصفة.

ووصل إلى الباب، إلى باب القصر الكبير الموصد، فراح يضرب بيده على الباب وهو يولول: هند!.. هند!.. هند..

واطلت هند إلى الشرفة فشاهدته، ونادت السائق والطاهي والحارس لتقول: «اطردوا هذا المجنون من هنا».

وسمع عاطف ما قالت هند، وشاهدها في أناقتها.

شاهد الحلى والجواهر والماس والذهب واللآلىء تزين جيدها وأصابعها ومعصميها فبكى.

وأدرك أن المال، لا شفيق نزار، هو الذي سلبه حبيبته.

لقد جذب الذهب هند.

فأعمى قلبها وجفف منه الحب والعاطفة والحنين.

ووقف على ذعر.

وهدأت ثورته فجأة وهو يسمع كلمات هند: «اطردوا هذا المجنون من هنا».

ووجم. وتحولت الثورة في قلبه إلى سكون انفجر دموعاً غزيرة في عينيه فألوى عنقه.

وراح يجر رجليه جراً وهو يخرج من حديقة قصر شفيق نزار، ويبكي بكاء مراً أشبه بالحشرجة ساعة الاحتضار.

ولم يعد إلى اللاذقية.

لا، لم يعد إلى عمله الجديد في محال شفيق نزار.

كان يريد الوظيفة ليؤمن السعادة لهند.

أما الآن وقد خسر هند، فماذا يريد من الوظيفة؟.

بئس الوظيفة وبئس المال وبئس الحياة بأسرها.

وعاد إلى كسب كسير الخاطر مهيض الجناح.

وأراد أن يعيش بذكرياته.

إلا أن الذكريات أبت أن تسعفه في النسيان وفي توفير السعادة والهناء.

فاصبح أقرب إلى الجنون منه إلى العقل.

كان يطوف الغابات والأحراج والبساتين والكروم ويبكي.

ويقف عند كل جدول كان يمر به مع هند ليسأله بجنون: «قل لي أيها الجدول، أين هند؟».

ويجلس في الغابة الخضراء تحت الشجرة الكبيرة العجوز ينظر إلى أغصانها والدموع تغمر عينيه ليتمتم: «أين هند أيتها الأغصان؟ لماذا لا تعود إلى ظلالك الوارفة؟ لماذا هجرتك وهجرتني؟ لماذا؟».

ويهرع إلى تلك الصخرة، الصخرة التي حفر عليها اسمه واسمها يقف قربها يحدق بالاسمين من خلال دموعه.

ويعيد تلاوة ما كتب: «عاطف وهند معاً إلى الأبد».

ويبتسم، يبتسم من خلال الدموع.

الدمعة في عينيه والبسمة على شفتيه.

ثم يمد يده إلى المنديل. المنديل المطرز الذي أهدته إياه هند يوم رحل عن كسب إلى المدرسة في اللاذقية، ليرفعه إلى عينيه، فيمسح به دموعه ويقربه من شفتيه يقبله.

ويهمس: «هند.. هند.. هند..».

كان أقرب إلى الجنون منه إلى العقل.. ولم يكن ليستقر في دار ذويه.

فهو لا يعود إلى الدار إلا في ساعة متأخرة من الليل.

وكثيراً كثيراً ما يقضي ليله أيضاً خارج الدار فينام في الأحراج والغابات والبساتين يفترش الثرى ويلتحف السماء.

وشاعت المأساة في كسب وفي ضواحي كسب.

منطقة القسطل كلها علمت قصة عاطف وهند...

وتمتمت الشفاه: «يا للمجرمة غدرت به فأفقدته عقله. لقد باعت قلبها بأبخس الأثمان باعته بالجواهر والحلى والمال..».

وظلموها في ما أصدروا عليها من حكم.

هند لم تكن مجرمة ولا هي باعت قلبها بثقيل الذهب وثمين الجواهر والحلى.

لا، هند ما زالت تقيم من عاطف، من حبيبها عاطف على شوق وهوى وحب وحنين.

ولم تكن حالها لتختلف عن حاله.

كانت تقضي يومها في البكاء وليلها في النحيب.

وهي لم تظلم عاطفاً. القدر ظلمها وظلمه وصرع قلبيهما وفرق بينهما.

ويوم أمرت الخدم بطرده من أمام قصرها، أسرعت إلى غرفتها بعد أن شاهدت عاطفاً يخرج من الحديقة كسير الخاطر لترتمي على سريرها وتجهش بالبكاء.

وكان لا بد للمأساة من نهاية.

وكانت النهاية بعد مضي سنة على زواج هند من شفيق نزار.. كان ذلك في فجر صباح من شهر كانون البارد القارس اللاسع.

وكان عاطف ينام في الغابة غير عابئ بالبرد ولا بالصقيع. وإذا بوالده يسرع إليه والدموع في عينيه ليقول: عاطف.. رحمة بشبابك يا ابني. عد إلى الدار. أنا وأمك بحاجة إليك. أنت أملنا يا عاطف. لا تفجعنا بأملنا في الحياة.

وصمت عاطف، وراح يحدق في الأفق البعيد على صمت سحيق، وكأنه لا يسمع كلام أبيه.. وعاد والده إلى الكلام ليقول: هند زوجة شفيق نزار حبيبتك السابقة على فراش الاحتضار. إنها تدعوك إليها. أرسلت منذ قليل سائق سيارتها ليصحبك إلى اللاذقية. فهي تريد أن تراك قبل أن تموت. السائق في دارنا يا عاطف ينتظرك ليطير بك إلى اللاذقية.. تعال تعال يا ابني.

وأمسك الوالد بيد ولده يقوده إلى الدار.. ولم ينطق عاطف بحرف. لم يستطع أن ينطق بحرف. كان يسير قرب والده كما يسير الطفل الصغير دون أن يعلم إلى أين يسير. كان في حال مؤسفة مؤلمة دامية.. ووصل إلى الدار فإذا بسائق سيارة هند بانتظاره.

واستقلّ السيارة وهو على وجوم، فطارت به إلى اللاذقية، إلى مستشفى الدكتور عادل مرقس في شارع الأميركان. وهناك في المستشفى الفخم الأنيق، في غرفة ناصعة البياض كانت هند مستلقية على السرير واهية القوى شاحبة اللون تائهة النظرات.. كانت في ساعاتها الأخيرة.. الطب نفض يده منها. وزوجها الكهل وقف بعيداً يبكي، وكأنه يبكي جرائمه الرهيبة المخيفة المروعة.. والتفتت هند إلى زوجها الكهل، إلى شفيق، وكأنها تقول له: «أخرج من الغرفة. لقد حرمتني منه في حياتي، فلا تحرمني من التحدث إليه وأنا أقف على عتبة الأبدية».

وأدرك شفيق ما تقول عينا هند فخرج..

وتمتمت هند وقد خلت بعاطف: عاطف.. أريد أن أفضي إليك بالسر قبل رحيلي.. أريد أن أخفف عني العبء. أريد أن استغفر منك. أريد أن أسمع من شفتيك كلمة، كلمة واحدة «سامحتك».

فتقدم عاطف من السرير يمسك بيدها ويهمس: هند..

هند.. أنت لن تموتي لا، بل ستحيين لي، لي أنا حبيبك عاطف.

قالت بجهد: لا.. أنا سأموت.. سأموت بعد أن ولدت طفلاً ميتاً، منذ ساعات. لقد سمعت الأطباء يتهامسون «يا ضياع صباها.. ستموت.. ستموت». أنا لا أخاف الموت يا عاطف، بل أخاف عقاب الله، وقد جنيت عليك وعلى نفسي.. أريد أن أفضي إليك بسري. أريد أن أخبرك كل شيء.. كل شيء.

قال، وقد لمس الجهد الذي تبذله للكلام: لا تتعبي نفسك في الحديث يا هند. مهلاً. غداً عندما تشفين ستخبرينني كل شيء.

فابتسمت ابتسامة صفراء كوجهها.

وهمست: غداً؟.. وهل أعيش إلى الغد؟ لا، هند ستموت ياعاطف، موتها خير لها من الحياة.. اسمع قصتي.. عندما رحلت عن كسب بحثاً عن الوظيفة ادركت انك ستبوء بالفشل.. وعزمت على مساعدتك. انا ساساعدك في البحث عن العمل.. ولم اكن اعرف كيف ابحث معك عن الوظيفة.. وتنكرت.. تذكرت شفيقاً نزار الغني الكبير الذي يقيم في القصر الفخم في ضواحي كسب. كنت قد شاهدته مراراً عديدة.. وفي كل مرة كان يبتسم لي ابتسامة عميقة زاهية زاهرة، وخيل إلي أن ابتسامته على نبل وشرف وطهارة.. وشخصت إليه. شخصت إلى قصره وحدي.. ولم يكن وحده في القصر. كان هناك بعض الزائرين

والزائرات، ورحب بي، وعرضت عليه طلبي قلت: «إذا تمكنت من إيجاد وظيفة لعاطف السماح تكون قد أديت لي خدمة لن أنساها لك».

وابتسم وهمس: هل تحبينه كثيراً؟

وخجلت.. وصبغ وجهي الاحمرار...

وهمس شفيق نزار: «عودي إلي غداً في مثل هذه الساعة..».

وعدت في الغد، وكان وحده في القصر، فاستقبلني بالترحيب الشديد. وقادني إلى غرفته، إلى غرفة نومه. لم أكن أشك به. لقد خيّل إلي أنه يتربع على قمة النبل والشهامة. لم يكن هناك ما يخيف ولا سيما أنه في عمر والدي. وهناك في غرفته عرض علي رسالة يدعوك فيها إلى استلام منصب المدير في محاله وقال لي: «خذي هذه الرسالة. ضعيها أنت بنفسك في صندوق البريد.. عاطف سيكون مدير محالي في اللاذقية، وسيتقاضى مرتباً شهرياً ألف ليرة». لا تسل عن فرحي، لا تسل عن سروري. لا تسلني ماذا فعلت يا عاطف. كدت أطير من الفرح. وقدم لي شفيق نزار الخمرة. لم أمانع. كنت في حال غير طبيعية. الفرح يفعل في قلب الإنسان كما يفعل الحزن. يفقده صوابه. شربت الخمر من يد شفيق نزار، شربت حتى ارتويت، وضعت حتى لم أعد أعلم ماذا جرى. وعندما استفقت، كان الليل قد خيم على القصر. وكنت في سرير شفيق نزار. وأدركت كل شيء. أدركت

أنني فقدت أعز ما تحرص عليه الفتاة، فأخذت أولول وأبكي وألطم وجهي. وأسرع شفيق إلي يتمتم: «اغفري لي. إنني لعلى استعداد لإصلاح الخطأ. سأتزوج منك يا هند..» هذه قصتي يا عاطف، بل هي مأساتي أرويها لك، علّها تكون عبرة لكل فتاة تسير في طريق مجهول بدون حذر ولا روية، ولا إيمان يرشدها إلى طريق الخير والنور.

وأصلح شفيق نزار الخطأ، أصلحه على حسابي وعلى حسابك. على حساب قلبينا يا عاطف.. وارغمت على الزواج منه وقد ادركت انني لم أعد أصلح زوجة لك. ادركت أنني أصبحت وردة ذابلة ممرغة بالوحول. وكان العرس. عرسي كان مأتمي يا عاطف. سامحني سامحني سامحني...».

وشدت يدها يده.

وامتزجت دموعها بدموعه.

وغرقا معاً في لوعاتهما وآهاتهما ودموعهما.

وإذا بالطبيب يسرع ليخرج عاطفاً من غرفة المحتضرة متمتماً: «حرام عليك.. إنها تستعد لمقابلة وجه ربها، أبعد عنها.. لا تزعجها يا أخي».

وحاول عاطف التمرد على أوامر الطبيب.

إلا أن الطبيب والممرضات أرغموه على الخروج..

وكانت هند قد وقفت على عتبة الأبدية . .

وماتت هند . . .

وصعب موتها على زوجها شفيق نزار، وقد انتصبت جريمته هائلة أمام عينيه.

فباع كل ما يملك في سوريا ولبنان وأسرع بالهرب إلى المهجر القاصي البعيد.

كان يريد أن يهرب من شبح جريمته، وقد نسي أن شبح الجريمة كالظل، يتبع المجرم إلى حيث يذهب ويسير.

وعاد عاطف السماح إلى ارتياد الغابات والكروم والبساتين والأودية والتلال يبكي حبه الخالد وحبيبته الراحلة.

وكان يزور كل يوم تلك الصخرة المتواضعة في الغابة الخضراء ليقرأ ما كتب عليها «عاطف وهند.. معاً إلى الأبد..» يقرأ ويبكي، ويستعيد من خلال الذكريات تلك الأيام الباسمة الهانئة التي كان فيها قرب هند على سعادة واطمئنان..

ويتناول عاطف السماح المنديل الذي طرّزته أنامل هند الحبيبة من جيبه ليقبلّه ويمسح به دموعه الغزيرة المنسابة على وجنتيه هامساً: هند! . . منديلك الحريري المطرّز ما زال معي ليمسح دموعي، ويحمل إلى روحي الذكريات المؤلمة الدامية. أنت معي يا هند، وأنا معك، ونحن الاثنين معاً إلى الأبد يا روح عاطف وقلبه ونور عينيه.

الفصل الأول

!... دعني وشأني يا نديم، فالأيام ليست لنا يا حبيبي، والليالي الطوال لن تضمنا بين أجنحتها السوداء بعد اليوم. فلا أنت لي، ولا أنا لك يا نديم. فلنفترق منذ الساعة وليسر كل منا في طريقه المجهول.

فانتفض نديم العياش على ثورة ولوعة:

ـ ماذا تقولين يا هيفاء؟ أتريدين مني أن أذبح قلبي وقلبك بيدي؟ أتريدين أن أتوارى عنك يا هيفاء؟ هل وصل بك اليأس إلى هذا الحد؟ أيهون لديك حبيبك يا هيفاء؟

ـ لا يا حبيبي أنت لا تهون لدي، ولكنني أرى الأفق القريب على تجهم وعبوس، أرى ثمة غمائم سوداء تقترب منا لتغمرنا بالويل والعذاب والدموع. خير لي ولك أن نذبح قلبينا بأيدينا من أن تذبح هذين القلبين يد غير يدي وغير يدك.

فأرسل نديم زفرة محرقة من أعمق أعماق روحه:

ـ هيفاء!. . . ساعات اللقاء محدودة في الحياة يا هيفاء، ولكن ساعات البعاد ليس لها حدود، فهي طويلة وبعيدة وعميقة. فلنغرف من ساعات اللقاء قبل نضوبها يا حبيبتي، ولننسَ الأمس والغد، ونعش في يومنا هذا، يومنا هذا الذي يبسم لنا حيناً ليقيم منا على عبوس أحياناً. اليوم لنا يا هيفاء، ولكن الأمس لذكرياتنا، والغد لأحلامنا. . . فلنترك ذكرياتنا وأحلامنا للأيام ولنسعد بيومنا، لأن اليوم آفل لن يعود إلينا.

فتنهدت هيفاء:

ـ أي يوم هذا الذي تريدنا أن نسعد فيه يا نديم؟ أتريدنا على الحياة في هذا اليوم المليء بالأوهام والأشباح؟ إن يومي ألم وليلي دمع، وبين ليلي ويومي، بين ألمي ودمعي أقضي ساعاتي ودقائقي وثواني.

وغرق الاثنان، نديم وهيفاء، في آهاتهما ولوعاتهما.

فهما على ألم ولوعة وعذاب.

هي تحبه وهو يحبها.

ولكن والدها يأبى عليها هذا الحب الطهور.

ووالدها رجل غني، غني جداً.

عاد من البلاد الإفريقية منذ حوالى عشرين سنة، حاملاً ثروة طائلة.

ولكن كيف جمع هذه الثروة؟. . .

وكيف توصل إلى حشدها في مدة لا تزيد عن ثلاث سنوات؟

ليس من يدري.

ووالدها، سعيد النصير، سافر إلى البلاد الأفريقية عام 1927 فقيراً معدماً،

وعاد منها عام 1930 غنياً كبيراً.

وأحضر معه طفلة جميلة، هي ابنته من امرأته الافريقية التي ماتت عند ولادة الطفلة.

وعز على سعيد النصير أن يظل في بلاد فقد فيها امرأته الحسناء.

فباع كل ما يملك، وحمل ابنته هيفاء وعاد بها إلى الأوطان.

وكان يرافقه عبد افريقي، عبد بلون الليل القاتم، طويل القامة، أبيض الأسنان مجعد الشعر.

وكان سعيد النصير يعتمد العبد الافريقي في كل أعماله.

فهو الخادم المطيع الأمين.

وما إن حطت الطائرة من سعيد النصير الرحال في لبنان حتى راح يبحث عن دار منزوية منفردة ليشتريها ويعيش فيها عيشة مطمئنة هانئة.

ولكن لماذا يريدها داراً منفردة منزوية بعيدة؟

هذا ما لم يعلمه أحد.

ووفق إلى دار تقع في ضواحي بيروت.

وهي أقرب إلى القصر منها إلى الدار،

وتشرف على البحر المتوسط الهادئ الهاجع.

وعلى الجبال اللبنانية الشماء.

وأعجب سعيد النصير بذلك القصر المنفرد الهادئ.

ورغب في شرائه.

إلا أن الشائعات كانت تتصاعد حول ذاك القصر.

فهناك من يقول إن ذلك القصر مسكون بالأرواح الشريرة.

وهناك من يشيع أن الأشباح تحتل القصر.

وثمة من يؤكد أن جريمة كبرى وقعت في ذلك القصر،

وكانت السبب في حضور الأرواح والأشباح إليه.

وكثيراً ما قيل إن أصواتاً تتصاعد ليلاً من غرف ذلك القصر مستنجدة حيناً، ومهددة أحياناً.

وبالرغم من تلك الشائعات فقد أصرَّ سعيد النصير على شراء القصر.

واشتراه.

وسكن فيه مع طفلته هيفاء.

وخادمه العبد الافريقي ألبرتو.

وكلبين كبيرين يهددان من يقترب من القصر بالموت تحت أنيابهما النائتة.

ولم يكن أحد يزوره، ولم يكن ليزور أحداً.

فهو في عزلة ووحدة وانفراد.

ومضت الأيام والسنون.

ونشأت الطفلة هيفاء في جو منفرد وحيد كئيب.

وأدخلها والدها إلى المدرسة.

فكانت السيارة التي يسوقها العبد الأسود، تنقلها إلى المدرسة وتعيدها إلى القصر.

وغير طريق المدرسة لم تعرف طريقاً قط.

فأبوها يأبى عليها الاختلاط بالبشر، إنه يخاف عليها.

ويحرص كل الحرص على حراستها وتهذيبها.

ونالت شهاداتها العالية بتفوق كبير فقرّت بها عينا أبيها، وعينا العبد الذي كان يحبها حباً عظيماً.

وأقامت في القصر بعد نيل شهاداتها لا تخرج منه.

بلى، لقد كانت تتنزه من حين إلى آخر على الشاطئ الدافئ المنبسط أمام القصر الفخم الشامخ.

وذات يوم، فيما تنعم بالنسائم العطرة في جلستها فوق الرمال الذهبية اللون، إذا بصوت هادئ يتماوج مع هدير الأمواج:

ـ أيتها الآنسة! أيتها الآنسة!

فالتفتت إلى الوراء:

ـ من؟

وكان فتى جميل الوجه، طويل القامة،

يدل مظهره على التهذيب الكامل، والأخلاق الرصينة..

وتساءلت هيفاء: من يكون هذا الفتى الوسيم؟

وأدرك الفتى ما يجول في خاطرها فتقدم منها.

وقال: أنا نديم العياش من سكان هذه المنطقة. رأيتك تتنزهين فأقبلت إليك أستأنس بك. وأنت من تكونين؟

وكان يتكلم بجرأة وبطلاقة مما جعلها تجيبه عن أسئلته:

ـ أنا هيفاء النصير، ابنة صاحب هذا القصر.

ـ قصر الأشباح؟ ولكن لم أرَ وجهاً لك قبل الآن، مع أنني أرتاد هذه الأنحاء منذ أمد بعيد.

قالت: ذلك لأنني لا أخرج من القصر إلاّ نادراً.

وتطورت أحاديثما من أحاديث التعارف إلى أحاديث الأدب والشعر والعلوم.

فإذا بنديم من الشباب المثقف الواسع الاطلاع.

وعلمت كل شيء عنه: هو محام، محام متمرن، يعمل في أحد مكاتب محامي لبنان العظام.

وعلم كل شيء عنها: هي افريقية المولد، لبنانية الأصل، ماتت أمها عند ولادتها، فلم تر لها وجهاً.

وأبوها، أبوها سعيد النصير، يخاف عليها.

ويأبى أن تخرج من القصر.

واقتصر اللقاء الأول على بعض المعلومات.

إلا أن اللقاء الثاني تعدّى حدود المعرفة والتعرف إلى حدود الإعجاب والتقدير:

ـ إنني معجب بك أيتها الآنسة هيفاء.

ـ وأنا أيضاً معجبة بك أيها الأستاذ نديم.

وتعدد لقاؤهما.

وتطورت صداقتهما إلى أبعد من الصداقة.

فاحبها وأحبته.

وكانا يجتمعان كل يوم.

حيناً على الشاطئ المنبسط الرحيب.

وأحياناً في الحديقة التي تحيط بالقصر المترامي الأطراف بعد أن تحجر هيفاء على الكلبين الكبيرين وتأمن شرهما.

ورأى سعيد النصير يوماً ابنته تتحدث إلى شاب على الرمال السمراء، فكاد يجن...

ووثب إليها مهدداً معربداً هائجاً:

ـ يا شقية، أتريدين أن تنالي من كرامتي؟ من هو هذا الفتى الذي تجتمعين به على الشاطئ؟

فارتعدت هيفاء:

ـ هو... هو... هو أحد معارفي، إنه صديق حميم يا أبي.

قال: أنا لا أؤمن بالصداقة والأصدقاء يا هيفاء... عليك بالانقطاع عن لقاء الفتى، وإذا رأيتك تجتمعين به كان نصيبك ونصيبه الموت. أتسمعين؟

وكان يتكلم بقوة وبحزم.

فارتعدت فرائصها: ماذا يقول أبوها؟

أيهددها بالموت؟

لا، إن أذنيها تكذبان عليها، هذا مستحيل، مستحيل.

إلا أن الأب عاد إلى التهديد والوعيد.

قال: عليك أن تقلعي عن الطيش. أنت فتاة مثقفة وابنة رجل غني، ويجب أن تتربعي من الرصانة والتهذيب في أعلى قمة. إياك، إياك والعبث بمشيئتي.

قالت بانكسار: ولكنه فتى مهذب يا والدي، وهو يريد الزواج مني.

فانفجر سعيد النصير غضباً: يريد الزواج منك؟ ومن قال له إنني سأزوجك منه يا لعينة؟ أنت لست للزواج. لن تتزوجي من أحد. ستظلين عزباء. هذه هي مشيئتي، وعليك أن تحترمي مشيئتي.

وسار متوعداً غاضباً.

فلجأت هيفاء إلى غرفتها تبكي حظها التعس المنكود.

وما كاد الليل يبسط أجنحته السوداء على جبال لبنان الصامدة في وجه السنين والأدهار حتى شخصت هيفاء إلى الحديقة، ووافاها إليها الحبيب المعبود نديم العياش فانبرت تقول:

ـ «نديم!.. دعني وشأني يا نديم، فالأيام ليست لنا يا حبيبي...»

وتعددت جلسات الحبيبين الهائمين في حديقة القصر دون أن يدري بهما أحد.

فكانا يجتمعان كل ليلة بعد أن يسلخ الليل شطره الأول، تحت شجرة من الصنوبر ممتدة الأغصان، وارفة الظلال،

وكلما امتدت بهما الأيام ازداد هيامهما اتقاداً واضطراماً.

ورأى نديم أن يضع حداً لآلامهما فوثب ذات ليلة إلى حبيبته يقول:

ـ هيفاء! للألم حدود كما أن للبهجة حدوداً أيضاً، وعلينا أن نضع حداً فاصلاً لآلامنا يا حبيبتي، فلقد رشفنا من هذه الآلام ما جعل المرارة في روحينا على بعد وعمق. ومن يرشف الآلام يجب أن ينعم بحلاوة آماله وأحلامه، ونحن بعد أن ذقنا مرارة الألم يجب أن نتذوق حلاوة السعادة.

فتساءلت هيفاء: ولكن كيف تريدنا أن نقيم على سعادة وأبي يأبى علينا اللقاء يا نديم؟ أترى في الانفصال عن بعضنا سعادة؟.

قال: لا، ما هذا قصدت يا هيفاء. إني لأدعوك إلى الاتحاد في حين تفكرين أنت بالانفصال. نحن لم نخلق إلا لنتحد ونحيا معاً. أنا إلى قربك وأنت إلى قربي يا حبيبتي لن يفصلني عنك سوى ظلمات القبر الرهيب، ولن يغمض عيني عن جمالك سوى يد الموت العظيم. إن الله القدير أرادنا على لقاء، فلماذا يحاول البشر أن يحولوا دون لقائنا؟

قالت باستفهام: ولكن كيف تريدنا على هناء، وصفاء عيش، واتحاد دائم، وأنت في واد وأنا في آخر؟ كيف تريدني على اللقاء وأبي يحول دون هذا اللقاء؟

قال: علينا أن نفرَّ إلى حيث لا يعلم ولا يدري بنا أحد يا هيفاء..

فصعقت: ماذا تقول يا نديم؟ هل جننت؟ أتريدني على تحطيم قلب أبي؟ أتطلب مني أن أهدم كرامته؟ أتود أن تجعل من هيفاء فتاة طائشة يا نديم؟ لا. لا، هذا ما لست أقوى عليه يا حبيبي.

قال: ولكن أتريديننا على العيش في واد من الآلام والدموع مدى الحياة يا هيفاء؟ علينا أن نضع حداً لآلامنا. إما الاتحاد الدائم، وإما الانفصال الدائم.

فتمتمت بانكسار قلب: إني لأفضل الانفصال.

قال: لم أكن أعهد فيك قساوة الفؤاد يا هيفاء. أتفضلين

الانفصال عن حبيبك على الانفصال عن أبيك؟.. فليكن لك ما تريدين. سأحمل قلبي الجريح وأتوارى عنك يا حبيبتي. وداعاً وداعاً لا لقاء بعده يا هيفاء!

فاشجاها بيانه المرير.

قالت: نديم!.. إني أفضل الموت على هجرك يا حبيبي: ولكن ما عساني فاعلة يا نديم؟ قل لي، ماذا تريد أن أفعل؟

قال: ليس ثمة سوى الهرب. غداً في مثل هذه الساعة توافينني إلى خارج الحديقة، إلى الشاطئ الساجي. فأهرب بك إلى حيث لا تقع علينا عين، ولا تطالنا يد أبيك.

قالت بخوف: ولكن إلى أين تريد الفرار بي يا نديم؟ قل لي: إلى أين؟

قال: إلى قريتي اللبنانية الهاجعة تحت أقدام صنين، هناك سأقيم وإياك في دارنا الرحبة، فلا يعلم بنا أحد. سأتزوج منك يا هيفاء فتكونين امرأتي أمام الله والناس.

وحاولت الاعتراض على الخطة المرسومة، إلا أن نديماً حال بينها وبين أي اعتراض.

وقفز إلى خارج السور ينغمس في الظلام الدامس متوارياً عنها في كبد الليل البهيم.

❋ ❋ ❋

الساعة تدق معلنة انتصاف الليل.

ووشوشات الأمواج تتكسر في أذن الليل أنغاماً شجية.

حاملة إلى الأرواح الساجية الحنين البعيد إلى ما وراء الليل الساكن الهادئ.

وهيفاء النصير تقيم من الليل على قلق وحيرة وافتكار.

وتساءلت هيفاء: ماذا يا الهي؟ هل أنزل على طلب نديم وأوافيه إلى خارج السور؟ إن في ذلك حطاً من كرامتي وكرامة والدي. ماذا سيكون موقف أبي، وقد صدمته في كرامته المنتاف وشرفه الاثيل؟ من المؤكد أن الصدمة الهادمة ستقضي عليه. .. إذن لن أوافي نديماً، فليظل حيث هو، ولأظل حيث أنا. وغداً، غداً صباحاً اجتمع به واقنعه بالاقلاع عن هذه الفكرة المخطئة.

ويثب قلبها الخفوق الهائم على شوق ولهفة وحنين، متسائلاً:

ولكن نديماً؟ . . . نديم ينتظرني على جمر ولهب ونار، هل أقيم من حبيبي على جفاء في حين يقيم هو مني على انتظار واشتياق؟.. لا... نديم حبيبي.... فلأوافِ حبيبي الى المكان المعين في الموعد المضروب.

ـ: هل أذهب إليه؟

ـ: أجل. . .

ولكن لا . . . لن أذهب إليه.

وبين «أجل» و«لا» وثبت هيفاء إلى وشاح من حرير تلتف به.

وتسير بخطوات متئدة خائفة وهي تردد في سرها: «هل أذهب؟ أجل، سأذهب. لا، لن أذهب».

وظلت على تردد في سرها وفي أفكارها.

وفيما هي تهبط السلالم على رعشة واضطراب، إذا بنباح الكلبين الكبيرين الضخمين يتصاعد من الحديقة بقوة وشدة،

فوجمت هيفاء: رباه! . . . الكلبان سيطحنان عظام نديم. . من المؤكد أن نديماً وثب إلى الحديقة، فوثب الكلبان إليه ينهشانه ويعملان على فضيحته!

ووثبت وثباً إلى الحديقة محاولة حماية حبيبها وردّ الكلبين عنه.

وما كادت تصل إلى الحديقة حتى وقفت على رعب وجزع: ما هذا؟ ماذا أرى؟

وماذا رأت؟

رأت الكلبين ينهشان حبيبها.

ووالدها واقف أمامه على هزء واحتقار.

ووقفت على رعب.

وكادت تهوي إلى الحضيض.

إلا أن أباها تقدم منها على غضب مقعد مقيم: يا لعينة! إلى

هذه الدرجة من السفالة وصلت بك الحال؟ أتحاولين الفرار مع عشيقك الشرير؟ والله لأسحقن عظامك سحقاً.

ورفع يده يصفعها بشدة.

فتهادت ووقعت على الحضيض فاقدة الحس والرشد.

وعندما استفاقت وجدت نفسها في قبو مظلم رطب مخيف.

وأدارت نظرها في القبو المطبق عليها تتمتم في سرها: أين أكون يا رب؟

وتمكنت بعد جهد أن تعلم أنها في القبو الأسفل من قصر أبيها المترامي الأطراف،

وعادت بذكرياتها إلى الماضي.

فتذكرت كل شيء.

لقد كانت تحاول الهرب مع حبيبها نديم، فاكتشف أبوها محاولتها وحجزها في هذا القبو...

ولكن نديماً؟ ماذا جرى لنديم.

وأين هو الآن؟

وهل قضى نحبه تحت أنياب الكلبين الكبيرين؟

أم تراه نجا؟

وهب أنه نجا من الكلبين، فأين هو الآن وكيف الوصول إليه؟

وفيما هيفاء تغرق في أفكارها وآلامها ودموعها فتح الباب الكبير بحذر،

فاشرأبت عيناها: من تراه يكون؟

وإذا بالعبد الأسود الطويل القامة يطل من الباب حاملاً بيديه رغيفاً من الخبز الأسود وإبريقاً من الماء: خذي يا هيفاء، هذا هو طعامك، وهذا شرابك. كلي واشربي.. وإلى اللقاء!

فوقفت هيفاء على ألم ساحق هادم: ألبرتو! ألبرتو! تعال...

فأدار لها وجهه: ماذا يا هيفاء؟ ماذا تريدين يا ابنتي؟

قالت: بالله عليك يا ألبرتو، قل لي، ماذا حل بنديم؟ هل هو ميت؟ هل هو حي؟

وكانت الدموع تترقرق منها في المقلتين.

فتبعث الرحمة إلى الأرواح والعطف إلى القلوب.

إلا أن العبد، مع كل ما بدا منه من رحمة وعطف، اعتصم بالصمت الشديد، فأبى أن يتفوه بكلمة.

وأعادت هيفاء السؤال: البرتو! الا تجيبني يا ألبرتو؟ بالله، قل لي، أين هو نديم الآن؟ إنه حبيبي يا ألبرتو، إنه أملي الوحيد على هذه الأرض. ألم تحب قط أيام شبابك؟ ألم تشعر بعاطفة الهوى والحنين؟ ألا تقدر العاطفة الثائرة التي تجتاح قلوب المحبين؟.. ألا تشفق على هيفاء؟ ألست أنا صغيرتك المحبوبة كما تسميني؟

وتمسكت به: رحماك رحماك، رحماك يا ألبترو، قل لي أين هو نديم؟

فتحركت شفتا العبد الغليظتين السوداوين: إنه هنا، هنا في القبو الملاصق لهذا القبو، لقد سلمته طعامه الآن، وطعامه لا يختلف عن طعامك. رغيف وابريق ماء. . .

وأدار ظهره ومشى.

فلحقت به هيفاء تجرّ رجليها جراً.

ـ ألبرتو! بحقك افتح لي هذا الباب، أريد أن أتزود بنظرة واحدة من حبيبي قبل مغادرتي هذه الحياة.

إلا أن ألبرتو العبد لم يكترث لرجائها.

بل خرج من القبو.

وأقفل الباب وراءه إقفالاً محكماً.

وارتمت هيفاء على الباب تطرقه بيديها.

وتصرخ: ألبرتو! افتح يا ألبرتو!

فتعيد الظلمة صراخها رهبة وخشوعاً.

ويتجاوب الصدى في القبو المخيف أشباحاً وأوهاماً.

وظلّت هيفاء تطرق الباب بكفيها وهي تبكي بكاء مراً حتى أدمت كفيها وغابت عن رشدها.

فوقعت على الحضيض ضائعة الوعي منهوكة القوى.

الفصل الثاني

الليل يغمر لبنان بأجنحته السوداء، وبيروت تغرق في أحضان الليل على روعة وافتتان،

وهناك في الناحية الشمالية من ضواحي عاصمة لبنان يجثم قصر سعيد النصير على وحشة وروعة ورهبة.

وكل من وما في القصر هاجع المقلتين.

فليس ثمة في قصر النصير همسة ولا رعشة، ولا صوت.

وسيد القصر، سعيد النصير، يرقد ملء عينيه على اطمئنان وسلام.

فهو مطمئن لليوم وللغد.

وماذا يروم الإنسان، الإنسان الذي يقولون عنه إنه عاقل، وهومجنون،

يقولون عنه إنه مفكر، وهو غافل عن كل شيء،

والذي يقولون عنه إنه مبصر واعٍ، وهو مغمض العينين. . . .

ماذا يروم هذا الإنسان من الحياة سوى ذرة صغيرة من اطمئنان وسلام على هذه الأرض؟

وغرق سعيد النصير في فراشه الوثير على أحلام عذاب ورؤى وارفة الظلال!

وإذا بهمسات تتصاعد من خلال الظلام،

إنها همسات مرعبة تقشعر لها الأبدان،

همسات غير واضحة الألفاظ

تنطوي على وشوشات وزفير، وحفيف أجنحة.

فرفع سعيد النصير الغطاء إلى ما فوق رأسه محاولاً طرد الأحلام المزعجة،

ولكن الهمسات تصاعدت: إنها أشبه بالأنين والعويل...

فاستفاق ابن النصير على رعب. ما هذا؟ ماذا يسمع؟

وخيّل إليه أولاً أنه في حلم.

إلا أن تصاعد الأنين زاد في خوفه واضطرابه،

وفي يقينه أن ما يسمع ليس بالحلم.

وكانت الهمسات والوشوشات على مقربة منه.

فحاول رفع اللحاف عنه، إلا أن يديه لم تسعفاه في ذلك...

وجنحت أفكاره إلى الأرواح... الأرواح التي قيل إنها تحتل ذلك القصر...

ولكنه يقيم في قصره هذا منذ حوالى عشرين سنة ولم يسمع صوتاً للأرواح خلالها.

فماذا بدا؟ وماذا جرى الآن؟

وماذا حدا بالأرواح للخروج من مجاهل القصر ودهاليزه في هذه الليلة الدهماء القاتمة السوداء.

وتكاثرت الأفكار المرعبة في رأس سعيد النصير.

وكاد يذوب تحت الهمسات المخيفة: ـ ويلي من أين أتتني هذه الضربة الهادمة؟

وراح يشد باللحاف إلى ما فوق رأسه، وأسنانه تصطك من الخوف.

وكانت الهمسات تتصاعد بقوة هائلة مخيفة.

ثم أخذت تخف،

وإذا بوقع أقدام يتكسر في أذني سعيد مبتعداً رويداً رويداً.

حتى تلاشى في ظلمة الليل الرهيب.

وبالرغم من اضمحلال الهمسات فسعيد النصير لم يغمض له جفن تلك الليلة.

وما إن بزغ الصباح حتى هبَّ من سريره على نفحة من اطمئنان،

وأسرع إلى خادمه المطيع، إلى العبد الأسود الطويل:
ـ ألبرتو! أين أنت؟ تعال يا ألبرتو.

وأقبل ألبرتو يتمايل بقامته الطويلة: ماذا يريد مولاي؟

ـ هل سمعت أصواتاً ليلة أمس يا ألبرتو؟

ـ لا، أبداً يا سيدي، أنا لم أسمع شيئاً.

ـ وهل رأيت أحداً؟

ـ أبداً أبداً يا مولاي. ولكن، لماذا هذه الأسئلة أيها السيد سعيد؟

ـ لقد سمعت أصوات الأرواح تأتي مع همسات الليل وأشباحه يا ألبرتو. صدق من قال إن هذا القصر مسكون بالأرواح. علينا أن نرحل عن هذا القصر، بل علينا أن نعود إلى هناك، إلى افريقيا. هذه البلاد ليست لنا. هناك مقرّنا فلنعد إلى هناك.

فقهقه ألبرتو مكشراً عن أسنانه البيضاء: أتخيفك الأرواح أيها السيد سعيد؟

أيبلغ بك الخوف إلى هذا الحد، فتهجر بلادك التي ربيت فيها وترعرعت تحت سمائها، من أجل أضغاث أحلام؟

ـ ليس ما رأيت حلماً يا ألبرتو. إنها الأرواح!... لقد كنت أسمع همساتها، وأنينها ووقع أقدامها. من المؤكد أنها الأرواح التي قيل إنها تسكن القصر، وهي ستقضي علينا إن نحن لم نسرع في الرحيل.

ـ ولكن نحن نقيم في هذا القصر منذ أمد بعيد، فلماذا لم تشرفنا الأرواح بحضورها إلا هذه الليلة؟

ـ من يدري يا ألبرتو؟ مشيئة الأرواح غريبة عجيبة، لا يدرك كنهها أحد، ولا يعرفها أحد. والأرواح كما تعلم، واعلم، خالدة لا تموت ولا تفنى، فهي تظل الوف الوف السنين في مكان واحد دون أن تظهر، ثم تظهر فجأة، دون سابق وعيد أو إنذار. إنها الأرواح التي لم يدرك كنهها الإنسان المسكين حتى الآن.

فاستأنف ألبرتو القهقهات: الخوف سيذهب بعقل سيدي سعيد النصير، مسكين أفكاره السوداء ستقضي عليه.

والتفت ألبرتو إلى سيده يقول: أنا على ما تريد يا مولاي، إن كنت تروم الرحيل عن لبنان، فأنا أسير في ركابك. ولكن هيفاء؟.. ماذا ستفعل بالآنسة هيفاء؟

قال سعيد: هيفاء؟ هيفاء ستكون برفقتنا. سنرغمها على العودة معنا إلى افريقيا. غداً، يجب أن نتوارى عن لبنان، يا البرتو. سأحمل أموالي وأغادر هذا الجبل الذي لم أر فيه وميضاً من سعادة وهناء.

فصمت العبد الأسود مفكّراً: مولاه يريد مغادرة لبنان، وهو مجبر على السير في ركاب مولاه.

لا بأس سيعود إلى بلاده، الى افريقيا حيث أهله وصحبه ويعيش بينهم على رغد وهناء.

ولكن هيفاء؟ ماذا سيحل بها بعد مغادرة لبنان مبتعدة عن حبيبها نديم العياش.

وغرق العبد في تفكيره السحيق.

وراح سعيد يجمع أمواله ويعدّ معدات السفر.

ولم يأوِ إلى سريره في المساء إلا بعد أن أحضر مسدسه من صندوقه الحديدي ووضعه تحت وسادته.

إذا قُدّر للأرواح أن تعتدي عليه فما لها سوى هذا المسدس نافث النار...

ولكن هل تؤثر النار في الأرواح؟ من يدري؟

وأوى إلى سريره بعد أن غمر الليل العاصمة اللبنانية.

ولكنه لم يستسلم لسلطان الكرى.

سعيد النصير لن يعرف طعم الرقاد لئلا ينغمس في النوم فتأتيه الأرواح على غفلة وتفتك به.

ومضى الشطر الأول من الليل، والأرواح لم يبن لها أثر.

فلا همسات، ولا وشوشات ولا حفيف.

وبدأ الشطر الثاني، وأخذ النعاس يداعب أجفان سعيد، فأصبح عاجزاً عن مقاومة الكرى القوي الجبار.

وأغمض عينيه، وقبل أن يستسلم للرقاد تعالت الهمسات المرعبة.

إنها همسات الأرواح... يا لها من همسات هائلة مخيفة.

وكان يرافق تلك الهمسات وقع أقدام، كل همسة ترافقها خطوة.

فكاد سعيد يجن: ما هذا يا إلهي، ما هذا؟

وراح يردد اسم الله في قلبه.

علّ اسم الله العظيم يطرد عنه هذه الأرواح الشريرة الممعنة في تعذيبه.

إلا أن ترديد اسم رب الأرباب العظيم لم يجده نفعاً، فقد ظلت الهمسات تتصاعد مرفقة بوقع الأقدام.

وإذا بالأرواح تطلّ.

ها هي إحداها تبزغ متشحة بوشاح أبيض مخترقة كبد الظلام...

فارتعدت فرائص سعيد: ما هذا يا الله ما هذا؟

أتكون أرواحاً شريرة، أم تراها صالحة؟

من المؤكد أنها أرواح طاهرة فهي لم ترتعد لترديد اسم الله القدير.

كما انها ترتدي وشاحاً أبيض،

ولو أنها شريرة لاتشحت بالسواد.

وكانت تلك الروح تتقدم منه بخطى متئدة، مما زاد في خوفه.

وإذا بيده تمتد رويداً رويداً إلى تحت الوسادة، فتتناول المسدس.

وتصوبه إلى الروح التي كانت على بعد خطوات منه.

وتطلق النار من يد ترتعد على ارتجاف واضطراب.

وإذا بصوت هائل مخيف يتعالى في تلك الغرفة.

فيتجاوب صداه مع نسيم الليل العليل.

وهب سعيد إلى المصباح الكهربائي يضيئه،

وإذا «بالروح» تثب إليه فتلطمه لطمة قوية بيد مضرجة بالدم.

لقد أصابها الرصاص في اليد.

ورأى سعيد آثار الدم على اليد المتشحة بالبياض.

فاستعاد روعه: هذا الواقف أمامه، الملتف بالأقمشة البيضاء، ليس روحاً،

الروح لا تضم دماً ولا تحمل لحماً، إن هذا سوى لص شرير يحاول الفتك به....

وتناول مسدسه، يحاول إطلاق النار مجدّداً.

إلا أن ذلك الشبح الرهيب أهوى بيده على سعيد فوقع المسدس من يده.

واشتبك وإياه في عراك عنيف.

وفيما هما في المعركة استطاع سعيد أن ينتزع القناع عن وجه الشبح،

وإذا به يصرخ صرخة داوية: من؟... ألبرتو؟

فيجيبه الشبح: أجل! أنا ألبرتو... ألبرتو المنتقم لهيفاء البريئة.. يا قاتل الأجساد والأرواح!

وأهوى عليه باللطم وبالضرب.

واشتبك الاثنان سعيد وألبرتو، في عراك عنيف،

ووقع الاثنان أرضاً،

وراح ألبرتو يكيل اللطمات لمولاه،

وإذا بيد سعيد تلمس المسدس، المسدس الذي كان واقعاً على الحضيض، فتناوله محاولاً إطلاق الرصاص على خادمه،

إلا أن العبد تنبه للأمر.

فأمسك بيد سيده يشدها إلى الوراء.

وإذا بالمسدس ينطلق فتتراخى عزائم سعيد ويلوي عنقه متمتماً:

- قتلتني أيها الشقي!

فالرصاصة المنطلقة أصابت سعيداً في قلبه إصابة قاتلة، قضت عليه.

لقد مات سعيد النصير برصاصة مسدسه.

كأن الله أراد له الانتحار جزاء لما اقترف من ذنوب وخطايا على هذه الأرض.

* * *

هيفاء تعاني الآلام المبرحة في سجنها المظلم الرهيب.

وما تعانيه هيفاء يعانيه نديم العياش.

فكلاهما يتقلب على جمر ولهب.

ومما زاد في عذاب هيفاء يقينها أن حبيبها يقيم على مقربة منها دون أن تتمكن من رؤيته.

وغرقت هيفاء في دموعها وحنينها،

وكادت تذوب في آهاتها ولوعاتها وعذابها.

وشعرت بحاجة إلى الصلاة،

والإنسان لا يشعر بحاجة إلى الله وإلى التوسل والتضرع إليه، قدر ما يشعر عندما تنزل الكارثة على رأسه.

وقد تكون ضربات الله الكثيرة إحدى الوسائل التي تحمل الإنسان على التفكير في ما وراء الحياة وتعود به إلى التوبة والصلاة.

وركعت هيفاء وسط الظلام في سجنها المخيف متضرعة إلى الرب الإله العظيم: ـ يا إلهي، يا خالق السماء والأرض، يا موزع

الأفراح والآلام على الإنسان، يا مبدع الخير وقاهر الشر، يا من بذرت هذه العاطفة المقدسة في قلبي وقلب نديم، انقذني وانقذ حبيبي من عذابنا المرهق القوي، إنك على كل شيء قدير، يا إله السماء والأرض.

وإذا بوقع أقدام سريعة تتكسر في أذن الفجر البعيد،

فهبت هيفاء مذعورة:

ـ من يكون القادم في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟

وفتح الباب الضخم.

وأطلّ منه العبد الأسود.

فوقفت هيفاء على رعشة واضطراب هامسة:

ـ من؟ ألبرتو؟ ماذا تريد يا ألبرتو؟

وكان ألبرتو يحمل بيده شمعة ضئيلة النور،

وهو مشعث الشعر، ممزق الثياب،

فذعرت الفتاة. وصرخت: ماذا تقول يا عبد الشؤم؟ هل مات أبي؟

فجلس العبد فوق حجر ملقى في زاوية من زوايا القبو، ووضع شمعته قربه، وقال: هيفاء! هناك سر رهيب يجب أن أطلعك عليه يا هيفاء!

فوجمت هيفاء. وقالت: قل ما تريد يا ألبرتو. أخبرني كيف مات أبي ومتى؟

فاستوى العبد في جلسته. وقال: منذ حوالى عشرين سنة، وصل سعيد النصير إلى افريقيا وراح يبحث عن عمل يقيه الفاقة والعوز، فكاد يخفق، إلا أن العناية الإلهية أرسلت إليه الرجل النبيل «جميل الراضي»، وهو تاجر غني في افريقيا، فآواه في داره وعهد إليه بإدارة محاله الواسعة. إلا أن سعيداً قابل إحسان جميل الراضي بالإساءة إليه، فقد راح يراود امرأة جميل عن نفسها، وهي زوجة نبيلة لم تستطع احتمال نذالة سعيد فوبخته توبيخاً عنيفاً. وكنت أنا خادماً في دار جميل الراضي، فسمعت ذات ليلة سيدتي تستغيث: ـ «إلي، إلي، أسرعوا إلي». وأسرعت إليها، فإذا بها مذبوحة، وسعيد واقف أمامها وبيده خنجر يقطر دماً. وذعرت وحاولت الهرب، إلا أن سعيداً لحق بي وأمسكني قائلاً: «إما أن تساعدني على عملي وإما أن أقضي عليك كما قضيت على سيدك وسيدتك». فازداد خوفي وقلت باستفهام: هل مات سيدي؟ قال: «أجل، أنا قتلت جميلاً وحاولت الاستئثار بامرأته إلا أنها رفضت. فكانت نهايتها كما رأيت. إن أموال جميل الراضي أصبحت كلها بين يدي، وعليك أن تساعدني على بيع أثاث هذا القصر وبعض محتويات المحال الثمينة».

واقترب مني يهددني بخنجره، فخفت وأذعنت لأوامره...

وكانت هيفاء تضطرب وكلمات العبد تقع في أذنيها.

وإذا بها تقترب منه بفزع.

وتقول: ألبرتو! أرجوك، أرجوك أن تكمل سرد كل أسرارك لقد أصبحت ذليلة أمام نفسي. أنا ابنة قاتل، يا ألبرتو. أنا لا أستحق أن أكون حبيبة نديم العياش...

وانفجر بكاؤها فراح ألبرتو يخفف عنها.

قال: هيفاء لا تجزعي. أنت لست ابنة قاتل. سعيد النصير ليس والدك.

فذهلت الفتاة. ماذا تقول يا ألبرتو؟

قال: هي الحقيقة. أنت ابنة جميل الراضي. بعد أن فتك سعيد بأبيك وبأمك حاول أن يفتك بك. وكنت لا تزالين في المهد، فرجوته أن يعفو عنك وأن يتبناك، ونزولاً على إلحاحي رضي أن يعفو عنك، وبعد مضي يومين على مصرع أبيك كنت مع سعيد النصير نركب الباخرة إلى لبنان، ومعنا طفلة صغيرة... هي أنت!

فازداد اضطراب هيفاء: ماذا يقول ألبرتو؟ إن ما يقوله لهائل مروِّع،

واستأنف ألبرتو حديثه:

... وعشنا هنا في لبنان كما تعلمين، وكنت وما زلت أحبك كابنتي يا هيفاء. وصبرت على أعمال سعيد النصير كل هذه

المدة اعتقاداً مني أنه يحبك، ويحرص على سعادتك. أما الآن بعد أن ثبت لي أنه سيغادر هذه البلاد ويرغمك على الابتعاد عن حبيبك نديم والعودة بك إلى افريقيا، فقد قمت بالواجب المفروض. وأعدت الجميل لسيدي جميل الراضي ولامرأته سيدتي.. أتعلمين ماذا فعلت يا هيفاء؟ لقد كنت أسمع أن الأرواح الشريرة تسكن هذا القصر، فارتديت ثياباً بيضاء ومثلت دور الشبح، ودخلت على سعيد أهدده محاولاً الرجوع به عن غيّه وإيقاظ صوت الضمير في روحه الشريرة، ولكنه حاول الفتك بي فكان أن صرع برصاصة من مسدسه. هذه هي الحقيقة الناصعة كشفتها لك. والآن بعد أن ارتاح ضميري، بعد أن أخبرتك كل ما أريد أن أخبرك به، سأغادر هذه البلاد إلى بلادي، الى افريقيا، إلى حيث يقيم أهلي وصحبي، تاركاً في هذه البلاد العزيزة هيفاء التي أحبها وأحرص على سعادتها.

وإذا بالدموع الغزيرة تثب إلى مقلتي العبد وتنهمر على وجنتيه.

فاسرعت هيفاء هامسة ألبرتو! لا تبك يا ألبرتو. إن أكن فقدت والدي فأنت في مقام والدي، لن ترحل عن هذه البلاد، بل ستعيش بيننا هنا، فهيفاء أبداً في حاجة إليك.. ولكن نديماً ماذا حل به؟ تعال، تعال يا ألبرتو، تعال، تعال ننقذ نديماً. غداً يوم العيد، العيد السعيد، أريد أن يكون عيدنا عيدين. أريد أن أعيِّد مع نديم. تعال يا ألبرتو، تعال..

وأمسكت بيده.

وأسرعا معاً إلى نديم يطلقان سراحه ويصعدان به إلى القصر.

وتعانق الحبيبان على فرحة طلقة وارتياح رحيب.

وترقرقت الدموع في العيون. إنها دموع الفرح والابتهاج.

وفي اليوم التالي، أطل العيد البهيج.

ومع بزوغ يوم العيد كان نبأ انتحار سعيد النصير القاتل السارق قد عم لبنان،

وكان الحبيبان، نديم وهيفاء يحتفلان بزفافهما الميمون.

وكان العبد الأسود الشاهد على زواجهما،

وأقلع ألبرتو عن فكرة السفر إلى بلاده.

لقد أبى أن يبتعد عن «ابنته»، عن هيفاء.

هيفاء في مقام ابنته.

هو لن يبتعد عن ابنته.

سيعيش قربها وقرب عريسها ما بقي له من العمر على هذه الأرض.

وعندما دقت أجراس العيد كان العروسان يستقلان السيارة ليطيرا بها إلى اعالي الجبال المكللة بالثلوج البيضاء ليقضيا بين تلك الجبال الشامخة الوضاحة الجبين أيام شهر العسل الباسمة السمحاء.

تمت